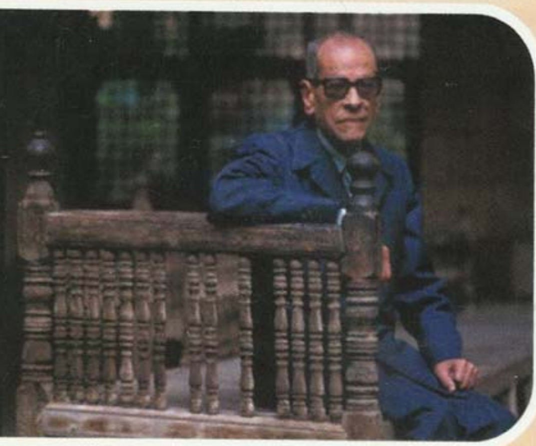
مقاهي نجيب محفوظ في مرفأ الذاكرة!..

51

Twitter: @abdulllah1994
26.4.2018



رشيد الذوّادي

مكتبة مدبولى

مقاهي نجيب محفوظ في مرفأ الذاكرة !..

رشيد الذوّادي

الناشر
مكتبة مدبولي
2008

مقاهي نجيب محفوظ

فى مرفأ الذاكرة !..

الـــكـتـــاب : مقاهي نجيب محفوظ
في مرفأ الذاكرة !..
التـــألـيـــــف : رشيد الذوّادي
الطبـعــــــــة : الأولى ٢٠٠٨
الناشـــــــــر : مكتبة مدبولى ٦ ميدان طلعت حرب – القاهرة
تليفون : ٢٥٧٥٦٤٢١ – فاكس : ٢٥٧٥٢٨٥٤
البريد الإلكترونى : **www.madboulybooks.com**
Info@madboulybooks.com
رقـــم الإيـــداع : ٢٠٠٨/٧٥٩٦
الترقـــيم الـدولى : 977-208-743-X

هذا الكتـــــــــــاب

قــارئ هــذا الكتــاب ؛ يجــد نفســه مــع وحـــي القلــم و خطوطه المضيئة، وفي رحلـة ممتعة بين القاهرة و الأسكندرية، و في صحبة أديب عالمي كبير عاش في أسئلة الأيام، و طاف في الحارات الشعبية و أحبها، و آستمد منها شخصياته الروائية، و تأكد لديه أن الزمن يمثل الحقيقة الأزلية الوحيدة التي تتحكم في كل الجزئيات حوله.

و قارئ هذا الكتـاب يعيش في ذاكرة جيل هام " بالمقاهي" كأماكن مفتوحة للحوار و النقاش، و يرافـق كاتبا أصيلا بدأ رحلته مع القضية و القلم ؛ وهو الكاتب القدير الأستاذ نجيب محفوظ ؛ الـذي فتح أعيننا عن الواقع الإجتماعي الجديد، و مثل الوجـه المشـرق لدينا، و حسم قضية الإنتمـاء إلى الثـورة.. و إلى المثـل العليـا.. و بحـث في الوجـود و في الحياة و العقل، و صاغ من كل ذلك مشروعا فكريـا لم يفصح النقد عن أبعاده بعد !..

و نجيـب محفـوظ العاشـق للمقــاهي ؛ و صــاحب (ميرامــار)، و (السـكرية)، و (القـاهرة الجديـدة)، و (اللـص و الكـلاب)، و (الســمان و الخريف)، و (الشحاذ)، و (زقاق المدق) و غيرها من الأعمال الخـالدة ؛ هـو الكـاتب الكبـير الـذي عـاش لحظـة (الحـدث)، و آرتبـط بالطبقـة

الوسطى و بـ (المقاهي)، و تحرك مع أبنية الوعي بالتوازن و بالمقابلة بين المواقف.

وهو الأديب ؛ الذي آرتبط بـ (الحرافيش)، و أكد على أن عالمهم ؛ هو عالم واقعي محدّد، مليء بالتكايا و الحارات و الساحات و المقاهي العتيقة.. وهو الروائي الحامل للرأي المضاد، و لأسرار الأعوام الحاسمة في حكايات فضاءات المكان، و في ملحمة الكشف عن بنية القيم.

و أقول أيضا عن نجيب محفوظ ؛ الباحث عن الحلم، و عن حياة النقاء و الفعل المؤثر ؛ هو المبدع الذي آهتم بالنظر للحقيقة بآعتبارها مفعولا لا فاعلا، و توقف عند المتغير و الفاني في الإنسان، و كشف عن الطابع الزائف للوعي، و رصد صور التعدد و الإنفصالات المجسدة في شخصيات رواياته، وهو الرافض لواقع التمزق و مشروعية الإستغلال، و الشعارات الكاذبة، وهو الصورة الحقيقية لصوت الحلم و الإنتماء النزيه في مرجعية الواقع الموضوعي الشامل و إبراز دلالاته.

و ينفرد محفوظ بحواره العميق المتطور للمراحل التاريخية المتعاقبة ؛ فهو الذي تساءل أكثر من مرة عن اصل الكون، و عن المخبوء وراء اللغز، و عن فاعلية المشاركة في الحياة الإجتماعية، و عن مرجعيات التاريخ بمفهومه الإجتماعي.

و نجيب محفوظ الكاتب الكبير و ذو المواقف الجريئة، و كالكثيرين من الأدباء الشرفاء مثل الولاء و الإنتماء للأرض، و الصوت الصادق المعبر عن أتواق الإنسان، و عن حاجته إلى الحرية و العدل الإجتماعي.

و المعروف عنه أنه أثار جدلا واسعا في كل ما هو منجز، و يخدم قضايا الفرد و قضايا الواقع الملحة.. و أدبه يرتبط إرتباطا وثيقا بحياته و بالطبقة الوسطى.

و آقترابه من هذه الطبقة نراه ماثلا أمامنا في تلك الذكريات الممتدة، و في جلساته في المقاهي مع الأصدقاء و الأدباء و الناس الطيبين.

و الكتاب ينقلك عبر (مقاهي محفوظ) في الأعوام الماضية بحرارتها و أسئلتها، و يرصد الواقع و الخبرة، و حراك المجتمع المصري في أيام زمان، و في تفاعل الكتاب مع تلك المنظومات التي ملأت حلقات النقاش في (المقاهي الأدبية) في مصر.

و أملي أن أكون وفقت فيما صبوت إليه من مسعى.

و الله حسبي، و بهديه التوفيق.....و السلام

تـــونس في 15 ديسمبر 2003

رشيد الـــــذوادي

من حكـــايات الزمن العربـــي الجميـــل !...

هذه مقولات عن حكايات حدثت في الزمن الجميل...!

و قد تؤلف هـذه الحكايات في مجموعها و تفاصيلها رحلة في الوجدان، و في المواقف، و في ملامح الإنسان عامة...

هي رحلـة في المسـألة المعرفيـة الـتي يطرحـها الحـاضر عـبر التفاعل و النقاش في المضامين المتجددة و الأوجه المتعددة...

وهـي رحلـة ممتدة، و ذات أبعـاد و أهـداف، و تشـير إلى مـن يشربون الشاي و القهوة و يتناقشون فيما بينهم و فيما كتبوه و أضافوه إلى الوجدان.

و في هـذه الحكايات ؛ آثرت أن أقـدم المعلومـة الدقيقـة... بعدما بـدأت تـأخذ شـكلا مـن أشـكال الـتراث، و أصبحـت تجربـة مفيـدة جسّدت (عالم الحارة)، و (عالم المقاهي في الحارات).

و في هـذه السـياقات ؛ لـو سـألتني : عـن أحـبّ الأشـياء إلى نفسـي؟... لقلـت لـك هـو الشـيء الغـالي... و الغـالي عنـدي هـو (فنجـان القهوة) ؛ و لذلك حرصت على شرب (القهوة) و الجلوس في المقـاهي ؛ لعلـي أجـد في (المقـاهي) تسـليتي و أشـياء أخـرى مـن روائـح الزمـن الجميل.

- وقفـــــة فـــي مقـــاطع الـــزمن :

و في الـتراث العربـي قيـل الكثير مـن الطرائـف و الأخبـار عـن (القهوة) و (الشاي)... و نحن لـو عدنا إلى محطات التعامل الكبرى في

تاريخ الإنسانية ؛ فإننا سنجد أن العرب في كل عصر لهم سابقية و جهدا موصولا في تنمية أنماط الحياة، و خبراتها، و مزاجها.

و أنه في أساسيات البحث العلمي ما يستوجب التأمل و النظر ؛ لو نفضنا الغبار عنه و تأملنا فيه بروية و دقة... فالعرب لهم صفحات مضيئة في التاريخ، و هذه الأمة سادت بمعارفها، و شكلت تلك الصورة من الأماني و الفواصل و الحلقات الموحية بعنصر (الوحدة) و سمات المكان.

إن أبناء الأمة العربية أعطوا الكثير، و كانوا سباقين في مجالات العلوم و الفنون، و تأثيرهم و رعايتهم للمعارف يشهد به الجميع.

فالعرب دعوا إلى الجمع بين التخصص العلمي و الثقافة العامة... و في هذا السياق سار الجاحظ و النظام ؛ فكانا يعتدان بموهبة العالم و بجهوده الفردية.

كما أنه في عهود حكم العرب و قيام دولهم القوية ؛ إتسعت مجالات الإبتكار العلمي و الأدبي...

و رأينا في هذا الشأن آبن سينا يضع أصول علوم الطبيعة و النبات و الحيوان... و رأينا أبا بكر الرازي كيف آعتمد علماء أوروبا على مؤلفاته الطبية، ثم كان الغزالي أسبق من (ديكارت) بمئات السنين في كتابه (المنقذ من الظلال) في مسألة الشك... و العرب هم أيضا كانوا أقدم من (نيوتن) في الكشف عن قوانين الجاذبية.. و قدامة بن جعفر في (البصرة) بالعراق ؛ تفطن إلى كروية الأرض و قصر النهار، و آبن مسكوية نادى مرارا بأن الفضيلة الرئيسية هي الحب للجنس البشري.

و آبن باجة الأندلسي تبحـر في دراسـة أرسطو، و نظرياته تتلخص في : أزلية العالم، و خلود النفس و وحـدة العقـل، و وجـوب صدور المعلـولات عن عالمها دون استثناء...(1).

و آبن خلدون وضـع أول كتـاب في علـم الاجتماع، و يرى في هذا الكتاب أن مقياس تقدم الدولـة و تحضرها يكمن في وفـرة الإنتـاج و كثرته.

و آبن زهر الأندلسي هو الآخر وضع كتابه "التيسير" ؛ و يعد هذا الكتاب أول كتاب طبي يعنـى بصحة الجسم و سلامته... و المعروف أن هـذا الكتـاب ترجـم عـن العبريـة سنة 1281 م و صدر بأوروبـا في ذلـك التاريخ.(2)

إن مشهد الحيـاة العربيـة ثري كمـا تـرون.. و الكتابـات العربيـة طرحت أسئلة كثيرة عن الكائن الإنساني و دوره و فاعليته.

و أرى شخصيا أن الكائن الإنسـاني الحـي ؛ يتمثـل في حضـوره في أحداث عصـره، و في آلتصاقـه بالنـاس و آنفتاحـه عليهم... و لا شـك أن في كـل هـذا مـا يعطـي نفسـا جديـدا للمفارقـة و المقابلـة في النسـيج الإجتماعي الإنساني، و به تسير قافلة الأحياء لا تلوى على شيء، و كأنها قاطرة جديدة تنبت الأمل ؛ كما ينبت التراب الزهرة اليانعة.

1/ انظر (البحوث الأدبية... مناهجها و مصادرها) : الدكتور محمد عبد المنعـم خفاجي (دار الكتاب اللبناني) ط2 1980 ص55

2/ المصدر نفسه ص55.

و هنا أشير إلى أن طرافة الحياة- كما هو متعارف- تستند على الذاكرة و الذكرى، و عن الأمس الدابر، و لحظات الحاضر السعيد، كما تعتمد على صدق المشاعر و أحداث الزمان، و تحتفظ بالحلو و المر، و بما يحدث في التجمعات السكانية، و بما يرتبط بعلاقات الناس في حياتهم و مجالسهم.

و (المقاهي) في هذا الشأن ظلت على الدوام جزءا من مقاطع الزمن الجميل ؛ تسجل ما يجري في الحياة من حيوية و حوارات و آنعكاسات.

- القهوة... هدية من العرب إلى غيرهم :

و (القهوة) بالتالي ؛ شكلت هذا الحضور المستمر في تقاليد التعامل بين الشعوب و الأفراد و بالخصوص في الوطن العربي.

و إن (المقاهي) هي - و إن آختلفت من بلد إلى آخر من حيث الدور و الأهمية- ؛ إلا أنها تلتقي في قواسم مشتركة ؛ ففيها دارت المناقشات و تم ترابط الأجيال، و تفاعل الماضي مع الجدل و الصراع، و وقع فيها تشكيل تلك المنظومات التي ملأت حلقات الجدل و النقاش.

و في أجواء (القهوة و الشاي و النرجيلة) ؛ رأينا هذا الحضور الدائم للمقاهي ؛ حيث آحتفظت بالذكريات و الأشواق و الطرائف و النوادر على مر العصور. (3)

3/ انظر (مقاهي الأدباء في الوطن العربي) : رشيد الذوادي ط مصر 1999 ص 7.

قلت و إذا ما كانت طرق إعداد (القهوة و الشاي) تختلف من شعب إلى آخر ؛ فإن (القهوة) و (الشاي) لهما مكانة خاصة بين كل من يستهلكهما، و عند كل شعب يحرص على تقاليد التعامل مع هذين المشروبين.

و إذا ما كان (الشاي) الذي نشربه له تاريخ طويل، و زمن آكتشافه كان أقدم عهدا بكثير من (القهوة) ؛ فإن (القهوة) سجلت حضورا قويا و كانت مكسبا مهما، و (هدية العرب إلى العالم كله).

و هنا قد يطرح ما يلي :

أولا : كيف بدأت حضارة الشاي و القهوة ؟...

ثانيا : ثم كيف جرى تعامل العرب مع هذين المشروبين ؟..

و في إجابتي أقول أولا عن الشاي :

- إن (الشاي) جاءنا من الصين، و تاريخه طويل جدا، و مسيرة آنتشاره كانت بطيئة.. و (الشاي) الحالي ؛ الذي نشربه لا يختلف كثيرا عن ذاك الذي شربه الأمبراطور الصيني (شين نونغ) عام 2737 ق م .. و تقول الأسطورة.

" إن الأمبراطور كان يغلي الماء قبل شربه ؛ لأنه لاحظ أن الذين يشربون الماء المغلي يمرضون أقل من الذين يشربون مياه الآبار... و ذات مرة حملت الريح بضع وريقات (شاي) و أسقطتها في الوعاء، و لما لاحظ الأمبراطور تغير لون الماء و رائحته.

و هنا دفعه الفضول إلى تذوقه ؛ فكان بذلك أول من شرب (الشاي في التاريخ).

و لم نعثر منذ ذلك الزمن على أي نص مكتوب يتحدث عن الشاي، و لكن صينيين عاشوا بعد ذلك بقرون عديدة نسبوا إلى هذا الأمبراطور إكتشافه للعديد من صفات الشاي على الصعيد الطبي كمنبه، و ملطف للمزاج و مطهر...(4)

و تذكر كتب التاريخ أن الشاي آنتقل من الصين الى اليابان في القرن السابع الميلادي، و منذ عام 1484 م أعلن (الشوغون يوشيماسا) عادة شرب الشاي يوميا.

و في القرن الموالي وقع سن طقوس جديدة لشرب الشاي من طرف (ريكيو)، و لا تزال هذه التقاليد تمارس حتى يومنا هذا. (5)

و من حكايات (الشاي) أنه ظل محاصرا في شرق آسيا حتى القرن العاشر الميلادي حينما عرفه العرب عنهم.

أما الأوروبيون ؛ فقد آنتقل إليهم بعد ستة قرون عن طريق العرب بواسطة الرحالة (ماركو بولو)، و اقدم نص عن (الشاي) يعود إلى سنة 1559 م و ورد هذا النص في أحد كتب الرحالين من (البندقية) بعنوان : (مغامرات الرحالة في الماضي و الحاضر). (6)

- و عن القهـوة أقـول :

إن (القهوة) هي هدية من العرب إلى الجميع، و تاريخها يبدأ في ديار العرب، و يذكر جمال الغيطاني :

4/ (مجلة القافلة) السعودية م 52، العدد 3 (يوليو و أغسطس) 2003 ص 91.

5/ المصدر نفسه.

6/ نفس المصدر و نفس الصفحة.

((أن أول من آهتدى إليها هو أبـو بكـر بـن عبـد الله المعـروف بالعيدروس، كان يمر في سياحته بشجر البن، فآقتات من ثمره حـين رآه متروكا مع كثرتـه، فوجـد فيـه تجفيفا للدماغ، و آجتلابا للسهر، و تنشيطا للعبادة ؛ فآتخذه طعاما و شرابا، و أرشد أتباعه إليه، ثم وصل أبو بكر إلى مصر، و آختلف الناس حول هذا المشروب الجديد هل حـرام أم حـلال ؟...)). (7)

و يذكـر المؤرخـون أن تـاريخ القـهوة المـدون في أدبيـات الطبيب العربي الرازي : (852-932 هـ) : (1448-1525م) وهو أول مـن أورد (الـبن) و (البنشام) في كتابه (الحاوي) ؛ و لكـن كتـاب (الــبن) ضاع بمرور الزمن.

و يعتبر أقدم نص في العالم وصل إلينا و يتحدث فيه صاحبه عن (القهوة) ؛ فهو كتاب (القانون في الطـب) لآبـن سينا: (980-1037) هـ (1572-1627م) ؛ ففـي هـذا الكتـاب تجـد تضمينـا لـ 760 دواءا مـن بينها (البن) و (البنشام).

7/ راجـع (مقاهـي الأدبـاء في الوطـن العربـي) : رشـيـد الـذوادي ط القـاهـرة 1999 ص 62، و (ملامـح القـاهرة في 1000 سـنة) : جمـال الغيطـاني : (كتـاب الهلال) سبتمبر 1983 ص 7.

و البعض من المؤرخين أكد أن (البن) نبت في الحبشة و في بعض أجزاء اليمن ؛ لكن اليمنيون هم مكتشفوه كشراب منبه، و أول من آستعملوه في غير الطب. (8)

- المقـــاهي.. و أجـــمل اللحظـات :

و بعد مائة عام، و تحديدا في مطلع القرن السادس عشر الميلادي راج شرب القهوة على نطاق و اسع في الحجاز، و آنتقل فيما بعد إلى القاهرة، و دمشق، و آسطنبول، و بلدان المغرب العربي.

و في سنة 1554 م فتحت أول مقهى ؛ (كهفي خانة) في اسطنبول، و بداية من القرن العاشر : (1591م) فتحت أماكن عامة لشرب القهوة و أطلقوا عليها آسم المقاهي ...

و من اسطنبول ؛ التي بلغ عدد مقاهيها عام 1570م ستمائة مقهى ؛ إنتشرت المقاهي في أوروبا بعدما حصل أول اتصال أوروبي بالبن و تجاره من خلال (شركة الهند الشرقية) في مرفأ يمني أعطى آسمه لاحقا للبن، و رأينا فيما بعد كيف جلبت الغراسات الصغيرة من شجر (البن) من اليمن، و تم زرعها في (أمستردام) بهولاندة. (9)

و نظرا لأهمية (القهوة) ؛ كمشروب للضيافة و المتعة ؛ فضلها العرب على أي مشروب إلى أن لاح لهم شرب (الشاي) على إثر الاحتلال البريطاني لمصر سنة 1882. (10)

8/ مجلة (القافلة) ع 3 (يوليو / أغسطس) 2003 ص 90.

9/ (القافلة) ع / يوليو/ أغسطس / 2003 م ص 91 و ما بعدها.

10/ انظر (مقاهي الأدباء في الوطن العربي) : رشيد الذوادي ص 64 و ما بعدها.

و (القهوة) و (الشاي) و (المقاهي) أحدثت نقلة نوعية في المجتمعات العربية على مر العهود، و هذا ما دفع بالعديد من الأدباء و الشعراء أن يتحدثوا عنها و يولونها عناية خاصة و من هؤلاء هذا الشاعر الشامي المادح للقهوة و القائل لضيفه:

ما دام جيت على الـــحارة
ما تشرفنــا بزيــــارة !
ما راح بتكلفنـــا كثيــــر
فنجان قهوة ..و سيكـــاره

- القهوة و الشاي في إبداعات الشعراء و الأدباء :

أما الشاعر محمد الحريري مفتي حماه ؛ فيجري مفاضلة بين (الشاي و القهوة).. و من قصيد طويل يقول :

هاتهـــا قهوة خلاصـــة بـــن
مرة الـذوق تـــدفع النوم عنـي
أيـــن منها الشـاي الذي ذكروه؟..
فمن الشـــاي يا أخا الذوق دعني
أنـت فضلت أعجميا علي بعربـي
و هـــذا من موجبـات التدنـــي

و قـال برهـــان الديـن المبلـط المتوفـــى سـنة (948 هـ 1541م)

يا عـــائبا لســـواد قهوتنـــا التي
فيها شفـــاء النفـــس من أمراضها
أو مـــا يراها وهي في فنجانهـــا

تحكي ســـواد العين وسط بياضها

و أنشد هذا الشـــاعر في القهـــوة مرة أخــــرى فقـــــال:

أرى قهـــوة البـــن في عصرنـــا

على شربهـــا النـــاس قد أجمعـوا

فصـــــارت لشـــرابها عـــــادة

و ليســـت تضـــــر و لا تنفــــع

و أحد الشعراء نوه بالقهـــوة قائلا :

رب ســوداء في الكـــؤوس تجلت

تهـــب الروح نفحـــة من حيـــاة

عندمـــا ذقتهـــا تحققـــت منهـــا

أن مـــاء الحيـــاة في الظلمـــات

و وجدنـا في تـراث العــرب مــن هجــا (القــهوة و المقــاهي)

فقـــــال :

أقول لأصحـــابي عن القهوة آنتهـــوا

و لا تجلســـوا في مجلس هي فيـــه

فليســـت بمكـــــروه، و لا بمحــــرم

ولكن غـــدت مشــــروب كل سفيـــه

و لمح شـــاعر صديقـه سهـــرانا و قد مضـــى جـــزء من

الليـــل

فـــأتى إليـــه بـ(قهـــوة) و قال له :

رأيتـــك ســـاهرا و الليـــل يجري

على عجـــل كمن ركب الجـــوادا

و مـــن يعصـــر قر يحتـــه بليـــل
يــحـــن لقهـــوة (سكر زيـــادة)
و مــن نصــوص الشعـــــراء رأينـــا شـــــاعرا يتغـــزل بحبيبتـــه
فيقـــــول عنهـــا و عن القهـــوة :
سقتنــــــي قهوة في جنــح ليـــل
و في يـــدها خضاب كالمـــداد
فقهوتهـــا و كفـــاها و ليلـــــي
ســواد في ســـواد في ســـواد
و في نصـــوص الشعـــــراء ؛ ..قـد تجـد قصـائد عديـدة في مــدح (الشاي)... و من هذه القصـائد مـا قاله أحـد الشعراء المتيمين بالشاي :
و فنجـــــان يبـــاع بملك كســـرى
لذيـــــذ الطعم و النعنـــاع فيه
علقـــت به و حبـــي فيه يربــو
لشبه الطعـــم فيه طعـــم فيـــه
و أحــــــد شعــــــراء المـهجر قـــــال في (الشـــاي) ذات مـرة :
و ســـوداء قبل الطبخ حمـراء بعده
بدت بين أحباب كرام نــجـــائب
و أعني بها الشـــاي المباح شرابـه
فشربك ينفي عنك هم النوائـــب

ثلاثة أقداح و إن شئت رابعـــــا
فهذا نصاب (الشاي) عند المذاهب

أما غيره من الشعراء فأنشد يقول :

نعنع الكأس إن أردت سقــــاءنا
لا خيـــر في كـأس بلا نعنـــــاع

و إذا أردت قرابتـــي و مودتـــي
زدنـــــي على ثلثيهــــا بربـــاع

و عن أعذب لحظات (شرب القهوة) تقول الكاتبة الكويتية ليلى العثمان (11) في كتابها: (بلا قيود... دعوني أتكلم) ص 13 و تحت عنوان : (عاشقة القهوة) :

((أعذب لحظات شرب القهوة حين تكون في الجلسة واحدة " تقرأ الفنجان" أقدمه لها لتقرأ ((حظي)).

أستمع إليها و كل حواسي متيقظة، خصوصا إذا كانت تراني للمرة الأولى و لا تعرف عني شيئا. عندها أحكم عليها إن كانت شاطرة أو " على باب الله".

و أحزن جدا جدا إذا لم تختم قراءتها بجملة (في واحد يحبك و بيفكر فيك)، حتى و إن لم يكن هناك (واحد) فالوهم جميل.

11/ أديبة من الكويت بدأت رحلتها الأدبية منذ عام 1965، وآتجهت لكتابة القصة في سنة 1974، و أصدرت عدة مجموعات قصصية منها : الرحيل، و في الليل تأتي العيون، و فتحية تختار موتها..الخ.

الغريب أن هذه المعشوقة – القهوة – التي أموت فيها ؛ تكون هي الشيء الأول الذي لا أطيق أن أشم رائحته حين تبدأ عندي بوادر الحمل.

فأذهب إلى طبيبي، و أعلن له أنني حامل، و بعد التحليل تكون النتيجة سلبا ! فأصر على أنني حامل و يسألني : ما دليلك؟ فأقول : لقد كرهت القهوة، يضحك هازئا... أتحداه، و بعد أسبوع أعود إليه و أكرر التحليل فتكون النتيجة إيجابية، فآعتمد طبيبي قهوتي مؤشرا لكل حملي، و بعد الولادة، ما أن يطل وجه المولود حتى يكون أول ما يدخل جوفي فنجان–بل فناجين– من القهوة أكرعها و كأنني أرشف ماء الجنة.

(فنجان القهوة) ؛ الذي يسبب الأرق للناس، لا يؤثر بي.. أسهر و فنجان القهوة معي... أكتب وهو معي، أحزن و يختلط البن بدموعي، أضحك و أرى ضحكتي في قاع الفنجان.

أما أجمل اللحظات مع القهوة، فهي ؛ التي حين أكون متخاصمة مع من أحب يراضيني بعزومة على (فنجان قهوة) ...يقول : أجمل ما فيك أن ترضيتك غير مكلفة، غيرك لا ترضيه إلا أغلى الهدايا، و أنا أعرف أنه (بخيل) ؛ لكنه حين يراضيني بفنجان قهوة أراه أكرم الرجال، فأبادله الكرم، أقرأ له الكف على طريقتي الخاصة)).

حيـن تحكـــي مقـــاهي مصــــر !..

- المقـــاهي و القهـــوة في مصادر المؤرخيــــن :

(المقاهي و القهوة) في مصر و مـن خـلال الذاكـرة الشـفوية و التدوين التاريخي لهما حكايات طويلة.. و تستند هذه الحكايات إلى مرجعيات و شبكة من النصـوص و الوثـائق وفـق بناء يستعرض مشكليات التناول التاريخي و الأدبي، و يطرح مقارنات مهمة، و آكتشافات جديدة : قد تساعد و لو بصفة غير مباشرة تراث الطب، و أدب الذواقة، للتزود بالمعلومات و اللوازم عند الحاجة.

و لا تهمنا هنا عملية تغلغل (القهوة) و لا المقاومة ؛ التي لقيتها المادة الجديدة في بعض الأوساط في مصر ؛ و لكن المهم ؛ هو أننا أمام إحالات، و هوامش، و إيضاحات، و أعلام، تهم كـل ما آقترن بمحكيات (عالم المقاهي). (12)

و من حسن الحظ أننا وقفنا أما مؤلفين، و مشـاهد و أخبـار ؛ و كلها تؤكد على أننا أمام أسئلة و طرائف منسية في التراث العربي.

---

12 / انظر (أدبيات الشاي و القهوة و الدخان) : لمحمد الطاهر بن عبد القادر الكردي المكي ط السعودية 1950 ص 39

و هنا قد يتساءل المرء عن سبب رواج المقاهي و تفشيها شرقا و غربا على إثر ظهور بذور القهوة؟..

و للإحاطة بهذه المسألة يحسن أن نحيل المهتمين إلى عدد من المصادر الموثوق بها و منها الكتب التالية :

أولا : (أدبيات الشاي و القهوة و الدخان) للكاتب محمد الطاهر بن عبد القادر الكردي المكي، و طبع الكتاب سنة 1950، و تضمن فصولا مختصرة عن القهوة و الشاي، و مجموعة من القصائد الشعرية قيلت فيهما و أغلبها يعود الى القرون الثلاثة الأخيرة.

ثانيا : (القهوة العربية في الموروث و الأدب الشعبي)، و ألف هذا الكتاب مفلح البكر، و صدر عام 1995 ؛ و مؤلفه تناول فيه عالم القهوة العربية، و أدواتها و تقاليدها، و قيمتها الاجتماعية.

ثالثا : و (عالم الكافيين) و صدر بالانجليزية و مؤلفاه : (بينيت و اينبرغ)، و (ابوني هيلر) و لم يتركا شاردة و لا واردة عن (القهوة و المقاهي) ؛ إلا و ذكرا بهما، و هذا المرجع الدقيق يحتوي أيضا على جدول بالمقاهي التي تقدم أفضل قهوة في العالم.

رابعا : (مقاهي الشرق) لجيرار جورج ليمير، و قدمه الأديب جمال الغيطاني، وهو فصول ممتعة عن (مقاهي الشرق) و عن عاداتها، و تجد معلومات ضافية عن قصة آنتشار (القهوة) و (المقاهي).. و الكتاب صدر بالقاهرة سنة 1991 عن (دار أخبار اليوم).

خامسا : (مقاهي الأدباء في الوطن العربي) للكاتب التونسي رشيد الذوادي، و صدر بالقاهرة عام 1999، و تجد فيه فصولا ممتعة عن المقاهي و القهوة، و عن أدباء من الوطن العربي هاموا بـ (القهوة و المقاهي).

المقهـــى و المنتدى :

و على مساحات التاريخ مثلت مقاهي مصر عالما عجيبا، و سابقة فريدة ؛ حيث كان يلتقي فيها الجار بجاره، و الصديق بصديقه، و القريب بقريبه ؛ و لذلك لم يخطيء بونابرت حين قال : " لا يوجد في الشرق الأسطوري من لم يضع وقته في مقهى، أو يضع جزءا من عمره في إعداد هذا المشروب المسمى بالقهوة" (13)

و إذا ما شاءت الأقدار أن يكون للمقهى و للقهوة هذه الحظوة ؛ فإن الأيام أثبتت و بكامل الدقة أن حظ (الرأي العام) ؛ ظل يتشكل بمفعول الشائعات ؛ التي تصاغ في هذا المنتدى، و حول هذا المشروب الساخن.

و شـــكلت مقـــاهي (القـــاهرة) و (الأســـكندرية) و (دمنـــهور) و (أسيوط) ؛ ذلك الخيط ؛ الذي التصق بالواقع، و عبر عن حاجيات الناس، كما شكل (المكان) أيضا الحوارات و الأحاديث التي لا تنسى و حامت حول أمنيات (المكان و الزمان)، و رغبات المثقفين و العاطلين و الكسالى، كما طرحت بين المناضد و المرايا ؛ أسئلة الحياة و مقولات الواقع و التاريخ.

و لم تخل (المقاهي) المهمة من حكايات (الحكواتي) ؛ وهو الذي تعود أن يجتمع برواد المقاهي كل ليلة ؛ ليقص عليهم قصصه الشائقة كـ : (الظاهر بيبرس)، و (فتوح اليمن)، و (أبو زيد الهلالي)،

13/ راجع صحيفة (الأهرام بتاريخ 1992/2/7 مقال لعائدة رزق.

و (الحكواتي) إعتاد أن يقطع حكاياته على ليال عديدة ليستمتع الناس بحكاياته العجيبة.

- طـــرائف و أخبار عن مقاهي مصـــر :

و إذا ما كانت - و على آمتداد حقب التاريخ - القهوة هي مشروب الضيافة لدى العرب حتى ظهر (الشاي) بعد الاحتلال الأنجليزي لمصر عام 1882 ؛ فإن شرب القهوة في مصر إقترن بالتدخين منذ أيام علي باشا : (1558 م) ؛ حيث أنه لم يكن معروفا من قبل (14).

و من المعلوم أن الدوريات العربية تولت هذا الأمر بعناية فائقة، و من طرائف ما كتبته (مجلة العربي) بتاريخ نوفمبر 1999 و بعنوان : (خسارة و العوض على الله) ما يلي :

((كانت مقاهي مصر و منتدياتها و أنديتها و مجالس الطرب فيها أول القرن عامرة بالشعراء و الفنانين و أولاد البلد و أولاد العرب و الترك و الأرمن و اليونان و اليهود و الشراكسة.

تجمعهم أغاني أمان أمان و المواويل و الموشحات تغني بأجمل الأصوات، و ينصهر المستمعون في بوتقة من الحرية يتيحها ذلك الزمان، أعني بداية التحديث الذي أشاعه مشروع محمد علي الكبير.

كان سي داود حسني "ديفيد" اليهودي الديانة و المصري الجنسية أحد ملحني هذا العصر الكبار.

كان سي داود يسير في شارع محمد علي مترنما بلحنه الجديد بينما يتابعه على الصفين أهل الشارع من محبي الطرب و الغناء. و كان

14/ مقاهي الأدباء في الوطن العربي : رشيد الذوادي ص 127.

يطلق صوته القوي ؛ لكنه كان يستمتع لعصافير بطنه الجائعة و التي لم يدخلها الطعام من يومين.

اقترب منه "زكي مراد" والد طيبة الذكر المطربة ليلى مراد و كان مطربا و ملحنا أيضا، و كان يتبع داود حسني و يستمع للحن الذي يغنيه و قال :

- يا سلام يا سي داود يا خسارتك في الفقر، كان داود حسني يغيب في لحنه مذهولا من حالة الحمى الفنية التي تنتابه، همس في أذنه زكي مراد :
- و النبي لتعطيني هذه الأغنية أغنيها يا سي داود.
- لكن أنا متفق مع الست منيرة المهدية أن هذا اللحن لها.
- و يعني هي أعطتك أجرك؟
- لا... لكن الأمر..
- و دس زكي مراد في يد داود خمسة جنيهات و قال له:
- أفوت عليك بكرة لأحفظ اللحن.

مضى زكي مراد. و مضى داود حسني ذاهلا عن نفسه يغني بصوته الرائع. و حين شعر بشدة جوعه توجه ناحية حسنين الكبابجي ليتناول وجبة لم يذوقها من أيام، و حين وصل و تنشق دخان الشواء نظر في كفه فلم يجد الجنيهات الخمسة التي تبخرت من يده مثل فص ملح و ذاب. ضاعت الجنيهات بسبب ذهوله.

حزن داود حسني و قال في سخرية :

- يعني يا داود ألم تكن الست منيرة أولى باللحن؟

الله يلعنك يا زكي و يلعن صباحك..)).

و يـــورد عبــد المنعـــم شميـــس في كتابـــه (قـــهاوي الأدب و الفن في القاهرة) أن طبقـة المجتمـع المصـري في أيام زمان لم تبح لنفسها آرتياد المقاهي و أشار إلى ذلك علماء حملـة بونـابرت علـى مصر و سجلوه في كتاب (وصف مصر) . (15)

و هــذه العــادة ظلـــت مســتمرة حتـــى الجيـــل المـــاضي، و من ذلك أن أحمد شوقي كان يجلس في (محل حلواني)، و مصطفـى كـامل في شبابه ؛ آتخـذ مجلسـه في (دكـان شـربتلي) في بـاب الخلـق. (16)

و أورد كتاب (وصف مصر) أن (مقـاهي القـاهرة) وحدهـا بلغـت 1200 مقهى منها خمسون (مقهى) بمصر القديمـة و 100 مقهـى ببـولاق .(17)

و آختفت مقاهي القاهرة بجلاسـها و أحصـى عددهـا علـي باشـا مبارك بحوالي : 1067 عام 1880 م، و أكبر نسبة منها تتواجد في (منطقـة الأزبكية) : (252 مقهى) و من اشهر هذه المقاهي :

15/ المصدر نفسه ص 128.

16/ (قهاوي الأدب و الفن في القـاهرة) : عبـد المنعـم شميـس (سلسـلة اقرأ) ط القاهرة ص 13، و كتاب (مقاهي الأدباء في الوطني العربي) : رشـيد الـذوادي ص 128.

17/ انظر (مقاهي الأدباء..) للذوادي ص 128.

- قهـــوة البوسطـــــة :

و (قهوة البوسطة) تقع بميدان (العتبة الخضراء) على التحديد، و يعود شهرة المقهى إلى الشيخ المصلح جمال الدين الأفغاني : (1839-1897م) ؛ الذي آتخذ من هذا المكان منتدى له. ليلتقي فيه بمريديه و أهل الرأي في مصر، و المقهى أصبح فيما بعد مرتبطا بحياة الأفغاني و بنضالاته السياسية في مصر الحديثة.

و في مجالس المقهى تعود الأفغاني أن يجلس في صدر المقهى، و حوله تتألف نصف دائرة من مريديه الذين كانوا يلقون عليه أدق الأسئلة، و الأفغاني إعتاد ان يقضي كامل الليل في هذا المقهى و عودته إلى داره تكون في الصباح بعد أن يدفع لصاحب المقهى جميع مصاريف الجلسة و هؤلاء المريدين تجاوزت شهرتهم الآفاق، و أصبحوا فيما بعد من أعلام السياسة و الفكر.. و في عقدمتهم يأتي عبد الله النديم، و ابراهيم المويحلي، و أديب اسحاق، و محمود سامي البارودي، و ابراهيم الهلباوي، و يعقوب صنوع وسواهم من الشخصيات، كعباس محمود العقاد، و ابراهيم المازني، و الشيخ فهيم قنديل صاحب جريدة (عكاظء) الصادرة بالقاهرة.

و (مقهى البوسطة) ظل مقترنا طيلة القرن الماضي بآسم جمال الدين الأفغاني، و فيه دارت نقاشاته السخنة.

و مع مرور الأيام تغير آسمه فأصبح يعرف بـ (قهوة متاتيا) (18)

18/ قهاوي الأدب و الفن في القاهرة : عبد المنعم شميس ص 96 و 97.

- مقـــاهي القـــاهرة الفنيـــة في العشرينـــات :

و مصادر التاريخ تذكر عن فترة العشرينات ؛ أن القاهرة بالذات عرفت نشاطا فنيا ملحوظا، و وصفت جريدة (لوموند) الفرنسية الأجواء الحرة في هذه في المقاهي في تلك الفترة .

فقالت : أجواء القاهرة مرحة في فترة العشرينات، و (القهاوي في القاهرة) تميزت بحركة الأدباء و بنشاطهم، و بالنقد الاجتماعي.. و أغاني الريف في مقاهي هذا البلد تعبر عن التغييرات العميقة و تطرح بدائل لمجتمع جديد بدأ يظهر آنذاك.

و بعدما كان الغناء يتم على أرصفة الشوارع ؛ تغيرت الحالة و أصبح يتم في القهاوي.

و مع مرور الأيام تحولت المقاهي المفتوحة إلى أماكن مغلقة ؛ ليتم دفع رسوم الدخول التجارية.

و في موجة ازدهار الغناء ظهرت (الطقاطيق)، وهي من أغاني الشوارع الجريئة كما بدأ ظهور (صناعة التسجيلات)، و رصدت الأموال لتسجيل إسطوانات لكبار المطربين و في طليعتهم سيد درويش : (1892-1923م). (19)

- قصـــة (فنجـــان الشفـــة) :

و إذا ما كانت طقوس إعداد القهوة و شربها يختلف من بلد إلى آخر : فإن أعرق هذه الطقوس هي الطقوس العربية.. ولا غرو في

19/ صحيفة (الوفد) بتاريخ 1995/9/27 مقال مترجم عن ا(لومند) الفرنسية و ترجمه الكاتب د.عزت صقر.

دلك ؛ فالعرب لهم تقاليد عريقة في هذا الشأن و حرصوا منذ أزمان على أن تغلى القهوة عدة مرات في (دلال) مختلفة الأحجام.. و (الدلال)؛ هي عبارة عن أوعية غلي و تدعى في مصر (الكنكة)، و في الشام (الركوة)، و في تونس (الززوة)، و كل هذه الأوعية تصنع من النحاس الغير القابل للصدأ. (20)

و العرب و المصريون على وجه الخوص تعودوا أن يشربوا القهوة في (فناجين) مصنوعة إما من السراميك أو من الزجاج.

و يسمون هذه الفناجين بـ : (بفناجين الشفاه).

و (فنجان الشفة) يتميز بصغر الحجم، و تفنن هؤلاء كثيرا في صناعته، و حافظوا على نظافته و على بياضه، و آكتسحت صناعته الأسواق ؛ حتى أصبح يصنع من الذهب و الفضة إسوة بما فعله الصينيون في غابر الأيام. (21)

و (فنجان الشفة) عند المصريين و العرب عموما ؛ هو عنوان التحية.. و القاهريون إعتبروه من مظاهر الألفة و التعاطف و الإيناس، و حوله كان يتم تجميع الأصدقاء و الأدباء و كل من هب و دب من أصحاب الرأي و القرار.

20/ انظر (القافلة) مجلد 52 عدد 3 ص 96 (ملف عن القهوة و الشاي) بتاريخ يوليو و أغسطس 2003م.

21/ المصدر نفسه ص 97.

- (فنجــان القهــوة.. و قهوة الصــالحين) :

و عن (فنجان القهوة) يروي الكاتب المصري محمد فهمي عبد اللطيف هذه الحقائق فيقول : ((الناس في هذا العصر يتحدثون عن الديمقراطية و المساواة، و يحسبونها سمة من سمات هذا العصر و مفاخره.. و لو تدبروا لعلموا أن صاحبنا و حبيبنا هذا ؛ كان دليل الديمقراطية و مظهر المساواة بين الناس منذ أربعة قرون من الزمان : فهو سمير الفقير في كوخه الحقير.. و الغنى في قصره الكبير.. وهو أيضا في عون العامل الصغير، كما هو في عون الوزير الخطير. و إنك لتراه مع أهل المدن في منازلهم و في مجالسهم على حيد الشوارع و نواصي الطرقات.. كما تراه مع الفلاحين الكادحين على مصاطب القرى و منادر الضيافات..

نبت في منابت الطاعة، و نشأ رفيقا لأهل الزهد و العبادة، و آرتاب فيه الفقهاء.. فنكروا أمره.. و شنعوا عليه و على الهائمين بحبه.. على أنهم لم يلبثوا أن شغفوا به حبا، و هاموا به وجدا.. و آقتدى بهم سار الناس، فأقبلوا عليه هائمين مشغوفين لا يستطيعون صبرا على فراقه، و لا يطيقون يوما من مجافاته.. و هكذا ملأ حبه آفاق الشرق و الغرب، و تغلغل الهيام به في أنحاء الأرض..

ظهر (فنجان القهوة) أول ما ظهر في منتصف القرن التاسع للهجرة على يد شيخ تقي صوفي من أهل عدن اسمه جمال الدين أبو عبد الله بن سعيده.. و كان يتولى رياسة الإفتاء في عدن، ثم خرج إلى أفريقيا.. و أمضى وقتا في أطراف الحبشة.. و شرب مع أهل تلك الجهات شرابا يصنعونه من حب يسمونه البن لم يكن قد عرفه من قبل..

و لكنه رأى من تأثيره نشاطا و خفة في البدن ثم عـاد إلى دار إقامته في عدن.. و في يوم نزل المرض، فتذكر ذلك الشراب الذي شربه مع أهل الحبشة.. فأحضر مقدارا من حب البن و حمصه و طحنه و طبخه في الماء على نحو ما رآهم يفعلون.. و شرب منه فزال عنه المرض، و رأى من خواص هذا الشراب الأسود و تأثيره أنه يذهب بالنعاس و الكسل، و يكسب الإنسان يقظة في التفكير، و نشاطا في العبادة.. و لم يستأثر الشيخ بهذا الشراب الطيب النافع لنفسه.. بل صار يصفه و يقدمه لأصحابه و أتباعه من رجال الطرق.. فكانوا يستعينون به على السهر.. و قيام الليل في العبادة و الذكر.. و أحبوه و داوموا عليه نظرا لتأثيره الذي خالط أمزجتهم، و سيطر على حواسهم، و أرادوا أن يضعوا لهذا الشراب اسما فسموه "القهوة".. قهوة الصالحين. إذ أن القهوة اسم للخمر عند العرب، و كانت شراب الشعراء و الخلعاء و أهل المجون..

و نقل هؤلاء الشيوخ المتصوفة "القهوة" إلى مكة حين كانوا يقصدونها للحج، فآستساغها فريق من الفقهاء و الشيوخ، و شربوها و أباحوا شربها للناس.. و أنكرها فريق آخر منهم و شددوا النكير عليها، و على الذين يشربونها و يصنعونها.. كأنها الخمر أو أشد حرمة، و قامت بين الفريقين مجادلات و مصادمات.. و كل فريق يتعصب لرأيه، و يغالي في تلمس الأدلة عليه، حتى بلغ بالمعارضين أن آبتدعوا حديثا في ذلك عن النبي ﷺ يقول : من شرب القهوة يحشر يوم القيامة و وجهه أسود من أسافل أوانيها..

- القهــوة.. و بدايات ظهورها بالأزهــر :

و في القــرن العاشــر للــهجرة.. ظــهرت القــهوة في مصــر.. و كــان أول ظــهورها في رواق طلبــة العلــم مــن اليمــن بــالأزهر.. و كــان مــن عادتــهم أن يســهروا الليــل في الذاكــرة و المدارســة، و أن يقيموا حلقات الذكر في ليالي الأثانين و الجمع، و من الطبيعي أن تكون قد وصلت إليهم القهوة بوساطة إخوانهم القادمين من عدن.. فصاروا يشربونها لتساعدهم على السهر و النشاط للذكر طول الليل .. و كانوا يضعونها في مأجور كبير من الفخار.. ثـم يقـوم شـيخ الحلقة بتوزيعها عليهم في فناجين صغيرة حتى ينال كل منـهم نصيبـه علـى السواء، و من رواق اليمن بالأزهر خرجت القهوة و آشتهرت بين أهل الطريق الذين يسهرون الليل في العبادة، و الشيوخ الذين يقبلون على القراءة و الدراسة، ثم ذاعت بين العامة و شاعت، و أنشأ الناس دكاكين لتقدميها أشبه بالحانات.. و كانت كما يؤخـذ من تعبير الشيخ الشعراني تعرف ببيوت القهوة..

و كمـا وقـع بمكـة وقــع في مصــر، فـإن فريقـا مـن الفقـهاء و علماء الأزهر أنكروا هذه البدعة و حرموا هذا الشراب الذي يؤثـر في حـواس النـاس تأثيرا مفتعلا.. و آنقلب الناس إلى فريقين متصـارعين : فريـق الفقـهاء الذيـن يشـددون النكـير علـى الذيــن هـاموا بالقــهوة و يستحلونها، و فريق الصوفية الذيـن هاموا بالقهوة و وجدوا فيها شرابا حلالا يعينهم على السهر للعبادة و الذكـر و التجلي في الطريـق الى الله، و كثيرا ما كانت تقوم المشاحنات بين الفريقين، و كثيرا ما كـانت هـذه المشاحنات تتحول إلى معارك يراق فيها الدم، و كـان الحكـام يضطـرون

إلى التدخل في الأمر : فمرة يأمرون بتحريم القهوة و شربها، و مرة يأمرون بإباحتها و حلها و ترك الناس على هواهم في شأنها..

و يقدم لنا الشيخ الشعراني وهو من أئمة التصوف في كتابه "لطائف المنن" صورة ساخرة لموقف الفقهاء من شرب القهوة في القرن العاشر للهجرة، و يندد بموقف هؤلاء الذين يحرمونها فيقول : " إنهم يستحلون الغيبة و النميمة و أكل الحرام، و لكنهم ينفرون من شرب القهوة و يستقبحونها.. و يضرب الشعراني مثالا لذلك بشخص كان يغتاب الناس ليلا و نهارا، و يمزق أعراض العلماء و الصالحين، فقال له صديق : اشتر لي بهذا العثماني قهوة أشربها، فقال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، و الله لو ضربت بالسيف ما دخلت بيت القهوة أبدا...

و كتب الشيخ الجبرتي المؤرخ في ترجمة الشيخ " أحمد الحماقي " أحد علماء الأزهر فقال إنه كان صديقا لعلي بك الكبير حاكم مصر، و كان إنسانا دمث الأخلاق حسن العشرة صافي الطوية عالما بفروع المذهب، و لكنه كان لا يتحاشى الجلوس على القهاوي، و كان إخوانه من أهل العلم ينقمون عليه ذلك فلا يبالي إعتراضهم، و لقد ظل علماء الأزهر يرون الجلوس على القهاوي نقيضة تزري بالكرامة و المروءة، حتى وفد على مصر السيد جمال الدين الأفغاني فجلس على القهوة و جعلها رواقه الذي يبث فيه تعاليمه الى الملتفين حوله من طلاب المعرفة و العلم.. فزال بذلك الحرج من النفوس، و صار الجلوس على القهوة فسحة المشايخ و المتصوفين..

و في الحق أن للصوفية الفضل في إذاعة القهوة و تعميم شربها بين الناس. لأنهم اشد تاثيرا في العامة. و بخاصة في الطبقات العاملة، و لأنهم فرضوها بمزاولة الطاعة و مداومة العبادة،.. و خلعوا عليها صفة

الصلاح فسموها شراب أهل الله، و كما تفنن شعراء المجون في الحديث عن القهوة الخمرية، و نشوتها و ما تفعله بالألباب.. فقد آنطلق شعراء الصوفية يتسببون في هذه القهوة البنية أو القهوة الألهية و يتغنون بأوصافها و من ذلك قول شاعرهم :

شراب أهل الله فيها الشفا لطالب الحكمة بين العباد
نطبخها قشرا فتأتي لنا في نكهة المسك و لون المداد
فيها لنا تبر و في راحاتها صحبة أبناء الكرام الجياد
كاللبن الخالص في حله ما خرجت عنه سوى بالسواد

و قول شاعرهم أيضا :

و قهوة لا هم تبقى إذا قابلك الساقي بنفجانها
لا يوجد الغم بحاناتها قد خضع الفم لسلطانها
بمائها نغسل أكدارنا و نحرق الهم بنيرانها
يقول من أبصر كانونها أف على الخمر و أدنانها

على أية حال فقد أصبحت (القهوة) مشروبا محليا لسائر طبقات الشعب في مصر على الرغم من أنها لا تزرع البن و لا تنتجه، و أصبحت لها مشارب عامة في جميع الشوارع و الحارات، و في المدن و القرى و على مشارف الطرقات.

و آنتقلت (القهوة) إلى الشام و إلى تركيا، و إلى سائر بلاد العالم الإسلامي و أنشيء أول مقهى في تركيا عام 972 للهجرة أنشأه رجلان من سوريا تحت القلعة كما يقول المستشرق جورج يعقوب.. و يبدو أن الأتراك قد أقبلوا على القهوة في شغف.. و آتخذوها شرابهم المفضل على كل شراب ؛ فقد كتب أحد الرحالة في النصف الثاني من القرن السادس عشر للميلاد يتعجب من إقبال الأتراك على هذا الشراب

الأسود الذي يسمونه بالقهوة فيقول : وجرت العادة في كل صباح و في الأماكن العامة أن يجلس القوم و أمام كل شخص منهم أناء فخاري أو صيني عميق و بداخله هذا الشراب الأسود الدي يشربونه ساخنا..

ثم كانت القهوة هدية الشرق إلى الغرب، و تحية العالم الإسلامي إلى سائر العالم، في أنحاء الأرض، فالأتراك هم الذين أدخلوا القهوة إلى أوروبا، و أن كان ذلك عن غير قصد.. و كان ذلك حين غزت جيوش السلطان سليمان القانوني أوروبا.. و آندفعت حتى ضربت الحصار حول "فينا" فلما آنسحبت من هذا الحصار خلفت وراءها كميات كبيرة من البن، و كانت بين زادها للتموين .. فأخذها النمساويون و صنعوا منها (القهوة) كما يصنعها الأتراك، و من ثم عرفت القهوة في دول أوروبا ..و ذاعت بين شعوبها، و أصبحت لها مشارب عامة.. و بخاصة في المانيا.. حتى أنها قضت على المشروب الألماني القديم الذي كان يعرف باسم " هرزيبراى" وهو صنف من البوظة ؛ التي كانت منتشرة بين طبقات الشعب. و هكذا صنعت القهوة في كثير من الأمم و الشعوب حتى صارت مشروب العالم كله في أنحاء الأرض..

- فنجان القهوة يتبو عرش العالم :

و اليوم يجلس (فنجان القهوة) على عرش العالم بحق ؛ فهو مصدر العيش لمئات الملايين من الناس في الدول التي تنتج البن و تصدره إلى العالم، وهو كذلك مصدر الرزق لمئات الملايين من الذين يعملون في مشارب القهوة في العالم، و الذين يصنعون المعدات و الأدوات و الأواني لتقديم فنجان القهوة..

ثم هو الحاكم بأمره في أمزجة مئات الملايين من سائر الأمم و الأجناس اختاروا القهوة مشروبهم، و تغلغلت بتأثيرها في كيانهم..

و الذي لا شك فيه أن (فنجان القهوة) كان له أثر كبير في مزاج المجتمع المصري، و كان عنوان المودة في هذا المجتمع.. وهو التحية السائدة بين الناس عند التزاور.. (ففنجان القهوة) هو تحية كل إنسان لكل إنسان..)) (22)

- مقـــاه... و حكايــــات ... و طرائف :

و بعض مقاهي مصر لها حكايات... و حكايات شائقة كـ: (مقهى متاتيا) ؛ و يعد هذا المقهى من أشهر مقاهي القاهرة في العشرينات، و أمه جمع كبير من رموز الفكر و الفن و السياسة كـ : عباس محمود العقاد، و إبراهيم المازني، و سليم النقاش، و سعد زغلول قائد ثورة 1919 ؛ و هؤلاء كلهم إجتمعوا تحت راية الافغاني و عشقوا خطبة الثورية ؛ فكان من خطبه وهو يتصدر المجلس : ((هبوا من غفلتكم، و آصحوا من سكرتكم، و عيشوا كباقي الأمم أحرارا أو موتوا شهداء)).

و الأفغاني في هذا المقهى ؛ أنشأ أول حزب سياسي في مصر اسماه (الحزب الوطني الحر)، و من هذا الحزب تخرج تلاميذه، و قام هؤلاء بتوزيع المناشير السرية في البلد.

و في جلسات (مقهى متاتيا) ألقي القبض عليه في إحدى الليالي، و ذلك بعد أن هم بالخروج هو و خادمة ؛ ففي هذه اللحظات : ((آعترضه الجنود، و قبضوا عليه، و ساقوه إلى الحجز ؛ حيث بات ليلة

22/ محمد فهمي عبد اللطيف :"اقرأ" ع 496 (فبراير 1984) صفحات : (7-14).

على البلاط مع اللصوص و الساقطين.. و في الصباح وضع في عربة مقفلة إلى (محطة السكك الحديدية)، ثم إلى (السويس) منفيا من مصر دون أن يودع أهله، و صدر في الصباح بلاغ يبرر نفيه..)) (23)

و من حكايات المقاهي... نقاشات الأدباء و الفنانين في :

* (مقهى الفن) :

و يقع هذا المقهى في (شارع عماد الدين) و أمام (مسرح الريحاني)، و تردد على هذا المقهى جمع من الشعراء و أهل الفن كـ : محمد تيمور، و سيد درويش، و نجيب الريحاني، و السيدة روز اليوسف، و زكي طليمات الخ...

و يحكي بعض المؤرخين عن لقاءات هؤلاء بشيء من الإطناب فيقول : كان نجيب الريحاني يناقش بديع خيري عن مسرحياته على منضدة هذا المقهى، و سيد درويش كان يلتقي بمحمد تيمور عندما قام بتلحين رواية (العشرة الطيبة). (24)

* و (مقهى حسب الله) :

و يقع هذا المقهى في أول شارع القلعة، و كان و ما زال حاليا ملتقى الفنانين و الموسيقيين، و يروي بعض المؤرخين حكايات كبيرة في تلك المقهى و يقولون إن أول موسيقى أمه هو حسب الله و هو من اهل الموسيقى و الطرب، و آشتغل في حرس الخديوي، و خرج من جوقة الخديوي : ليؤسس أول فرقة موسيقية في القاهرة تسير في الافراح و المآتم و تحمل آسمه.

---

23 / انظر مجلة (صباح الخير) المصرية ع 54 بتاريخ 18 / يوليو /2000.

24 / انظر مجلة (صباح الخير) المصرية ع 110 بتاريخ 2001/9/4

* (مقهـــى ركس) :

و يقع في (شارع عماد الدين) بالقاهرة، و تأسس سنة 1931، و آمتلكه الخواجة داود عدس. ثم باعه إلى (الخواجة جيناكيس) اليوناني، و من ذلك الوقت أطلق على المقهى آسم (ركس).

و تعود نجيب الريحاني أن يتردد على المقهى يوميا ليدفع أجور فناني مسرحه، و آعتاد ألا يبقى كثيرا بالمقهى ؛ حيث يشرب ثلاثة (فناجين) من القهوة في أقل من عشر دقائق ثم يستأذن للإنصراف.

* مقهـــى الدراويش :

و مكان هذا المقهى خلف (جامع الحسين) مباشرة، و كان تميز بآحتفالاته الكبرى في شهر رمضان المعظم ؛ حيث تقام فيه سرادقات الفنون الشعبية و حفلات الإنشاد الديني كل ليلة في رمضان.

و من أطرف ما يحكى عنه أن الشيخ السفرتي مازال يشد و هناك مع فرقته بأغانيه الدينية و مواويله الشعبية منذ أكثر من نصف قرن.

* مقهـــى أبو شنب :

و مقهى (أبو شنب) حظي بشهرة واسعة في الأوساط القاهرية، و يقع أمام وزارة الداخلية سابقا، و آمتلكه أحد اليونانيين له شارب كبير يحتل نصف وجهه، و لذلك أطلقوا عليه آسم (أبو شنب) ، و أغلب جلاسه من الصحفيين و رجال الاعلام.

و العرف الجاري في أيام زمان أن يتولى رئيس الوزراء منصب وزير الداخلية.. و بالطبع كانت أخبار الدولة و أسرارها تتسرب من (قهوة أبي شنب).

و من المعلوم أن (قهوة أبو شنب) أغلقت في السنين الأخيرة لينتهي بذلك زمن متميز للصحافيين و الصحافة على طاولة (قهوة أبو شنب) الشهير.

* * *

و عن أوضاع المقاهي و الناس بالقاهرة سابقا أورد عبد الله (25) النديم هذه القصة الضاحكة و أسماها (الجنون و الفنون) و قال النديم في حكايته : ((ذات يوم جلس أحد
المحتالين من (شعراء الربابة) : الذين كانوا يطوفون بالمقاهي و يروون قصص حروب (عنترة بن شداد) ضد (الزغبي) و أخذ يقرأ أكاذيب أسماها (قصة عنترة)، فآجتمع عليه عدد من الرعاع و الهمج : الذين أولعوا بسماع الأكاذيب و الخرافات، فلما رآهم منصتين إليه أخذ يفتري عبارات ينسبها إلى (زغبة)، فآنقسم الجالسون نصفين : كل فريق يدفع له نقودا ليؤيد و يمتدح من يميل إليه.

و المحتال مجد في التحريف متفنن في الكذب حتى قرب الفجر، فقال : و بينما هم في قتال و نزال؛ آنكشف الغبار عن أسر (عنترة) و سنخلصه في الليلة المقبلة ".

25/ عبد الله النديم : (1845-1896م) هو الخطيب الوطني، و الكاتب الصحفي، و الشاعر الزجال، و لسان الثورة العرابية، و داعية للإصلاح الاجتماعي و السياسي..و آطلع النديم حينما عمل في مكتب التلغراف بسراي الأميرة خورشيار خانم أفندي على حياة القصور و إسراف الملوك ؛ و كتب عن بعض المجالس الأدبية و عن الأدباء البارزين في تلك المجالس : كعبد الله فكري، و البارودي، و محمد صفوت الساعاتي رسالة سماها : "لواء النصر في أدباء العصر".

فقال أحد السامعين : لابد أن نخلصه الليلة و خذ عشرة جنيهات.. فأبى المحتال و سكت. فشتمه السامع و علت أصواتهما بالقبائح و ضربوه علقة ساخنة، ثم ذهب السامع إلى بيته بعد أن تذكر أن عنده (قصة عنتره) ؛ و لكنه أمي لا يقرأ فأيقظ ولده من النوم وهو يبكي قائلا :

- يا ولدي.. لقد رزئ أبوك بمصيبة .. فقال له ولده :
- هل مات أحد أبنائك؟..

فقال : لا، و لكن الليلة أخذوا (عنترة) أسيرا.. فهات قصة عنترة خلصه، و إلا قتلت نفسي.

فقال الولد ساخرا : من عنترة.. يا والدي: أتتكدر على حكاية مكذوبة و كلها تخريف؟..

و ما لنا و (عنترة) إن هو إلا عبد أسود، أخذ شهرة مما صنعه من الشعر، و قتل بعض الناس لولعه بالنهب؟..

- فقال الوالد غاضبا : أتشتم عنتره يا آبن (   ) و نزل عليه بعصا حتى أسال دمه، و حلف عليه ألا يبيت عنده و لا يعاشره.

فخرج الولد المسكين وهو يسب الجهل، و يعجب من فساد أخلاق والده. فقابله أحد الجيران فسأله عن حاله ؛ فحكى له قصته مع والده فقال له :

- طالما قلت لأبيك ؛ دعك من (عنترة) و لتشجع "زغبي".

* (فما سمع كلامي).

فضحك الجار من سخافة عقل الإثنين وقال : لاشك أن ((الفنون جنون)) (26)

26- مجلة (صباح الخير) التاريخ 2000/7/18.

المقـــاهي الأدبيـــة في مصـــر

- المقهـــى... و لحظات المكـــاشفة :

و لئن شكل (المقهى) فضـاء مهما لرصد تضاريس ما جرى في الحياة، و في هذا العالم المتشابك العناصر ؛ فإنه بالتالي كان شاهدا حيـا على المتغيرات و الخصوصيـات، و مركـزا قويـا لما آصطلح عليه بفترات التحول الاجتماعي و السياسي في مصر..

فـ (المقهى) أسهم في بلـورة الوعـي الجمـاعي، و كـان بحـق فضاء مهما للنقاشات و الجـدالات الفكرية و الأدبيـة و نحـن لوعدنـا إلى مسارات التاريخ، و إلى سياقاته ؛ فإننـا لا نعثر علـى مرجـع يحـدد بشـكل قطعي (عمر المقهى المصري) و إن كان البعض من المؤرخين يـرون أن المصريين عرفوا ظاهرة آنتشار المقـاهي قبـل ثلاثمائـة سـنة من آكتشـاف مشروبي (القهوة) و (الشاي).

و كلما قيل عن (المكـان) و عـن لحظـات المكاشفة التي تـؤرخ للحظات الحميمية التي قضاهـا النـاس في المقاهي ؛ فـإن (المكـان)، إحتفظ بقدسيته عبر الزمان، و مثل بأشكال مختلفة ما سكن في دواخلنا من طقوس إحتفالية، و طباع متجذرة.

و المصري في شـتى العهـود : إرتبط بـ (المقهى) و بمـا يحـدث فيـه، و كـان يشرب فيه : الكركديـن، و الحلبـة، و اليانسـون. قبـل أن يقـع آكتشاف (القهوة) ثم (الشاي) فيما بعد.

إذن فـ (المقهى) و كما أكد عليه الكاتب جمال الغيطاني إرتبط بحياة الناس و معاشهم، و بالعادات و التقاليد التي ألفها المصريون. (27)

و على الرغم من أن (القهوة) لم تدخل مصر إلا في القرن السادس عشر الميلادي.. قلت و بالرغم من ذلك فقد ألف المصريون عادات المقاهي، و عمروا مناضدها بـ (النرجيلة) و (القهوة) و سواهما من المشروبات.. و أصبح من التقاليد المتعارفة أن يلتقي الصديق بصديقه أو بقريبه و ضيفه في إحدى المقاهي.

فهذه قصة انتشار المقاهي عبر الساحات المصرية، و بالخصوص في أيام العشرينات و الثلاثينات ؛ حيث أصبح في القاهرة وحدها (خمسة آلاف مقهى) و البعض من هذه المقاهي زاد عمره على ثلاثة قرون.

- المقهى الأدبي.. و حلقات التواصل الفكري :

و (المقهى الأدبي)، طيلة تاريخه ؛ مثل حلقة من حلقات التواصل على الدوام و نقل إلينا الكثير من ذكريات المكان و حكاياته.

و على (المقاهي الأدبية) ؛ التي كانت تعج بروادها في أواخر الخمسينات ؛ تردد العديد من الشخصيات الفكرية و الأدبية في مصر، و كان منهم الأديب الدكتور سمير سرحان.. و حدثنا هذا الكاتب عن هذه المحطة في حياته فقال :

((- جلس كاتب هذه السطور على (مقهى الحياة) منذ أن كان شابا يافعا أو ربما صبيا في الخامسة عشرة من عمره... إختلف منذ البداية إلى

27- راجع مقدمة كتاب (مقاهي الشرق) ط القاهرة 1991 ص 5.

(قهوة عبد الله) الشهيرة التي توسطت يوما ما (ميدان الجيزة)، و كانت مركزا للحركة الأدبية و الثقافية في أواخر الخمسينات، ثم أختلف بعدها إلى سائر المقاهي الأدبية الشهيرة في تلك الفترة، و حتى النصف الأول من الستينات.. (صان سوسي)، و (أنديانا)، و (ريش)،.. و حتى (كافيتريا سميراميس) القديم، و بعدها في سنوات البعثة بالخارج.

و كان لكل مقهى من هذه المقاهي حياة كاملة .. حياة زاخرة بالأفكار و الأحداث و الشخصيات ؛ الذين كانوا نجوم الفكر و الفن و الثقافة.. في الفترة .. شكلوا أهم و أخطر فترة من فترات الإزدهار الثقافي وهي تلك التي آصطلحنا أن نسميها بفترة الستينات.. وهي فترة كانت إنعكاسا لأهم فترة من فترات التحول الإجتماعي و السياسي في هذا الوطن.. لكنهم كانوا من البشر.. لديهم لحظات التألق.. و لديهم أيضا لحظات الضعف التي تدعو أحيانا إلى الرثاء..و شخصيات أخرى كانت من الناس العاديين أو من مجتمعات أخرى لكنها حفرت في نفس كاتب هذه السطور أخاديد من المشاعر الإنسانية..)) (28)

- في ذكريات المكان و الزمان :

و (المقهى الأدبي) ؛ الذي قلب رتابة الحياة رأسا على عقب يوم آحتضن الكتاب الجدد ؛ يعود إليه الفضل في إثراء الثقافة و الفكر، و في إحياء هذا الوهج من الحكايات و الذكريات و المعارك الأدبية ؛ التي آمتدت تفاصيلها في محكيات التاريخ المعاصر.

28- انظر (على مقهى الحياة) للدكتور سمير سرحان ط القاهرة 1996 ص 2..

و أدباء المقاهي بحثوا في القضايا الحارقة، و تحاوروا فيما قرأوه، و شدتهم علاقة (المكان) بما يحدث في (الزمان و الواقع) ؛ و إذا ما أردتم مثالا على ذلك ؛ فلنعد إلى ما حدث في (الزمان و المكان) معا و في نفس (مقهى عبد الله) فـ :

- المكان : مقهى عبد الله (بميدان الجيزة) في مصر.
- و الزمان : أواخر الخمسينات تحديدا !..

و ما حصل هو عناق فكري و آمتزاج أخوي بين مجموعة كبيرة من الأدباء جمعتهم حوارات (النرجيلة) ؛ و نقاشات حول دور الكلمة المسؤولة، و تم في هذه الحوارات ضبط مساحات ما يطلب من المثقف المسؤول؟..و أولويات الواجب.

و قدر رواد المقهى أن يؤدوا دورا في تكوين مجموعات من المثقفين ؛ يقودون الحركة الثقافية في الوطن العربي على آمتداد العقدين الأخيرين.. و يصف لنا هذه المرحلة الكاتب القدير الدكتور سمير سرحان في كتابة : (على مقهى الحياة) فيقول : ((قهوة عبد الله.. مقهى عادي في مظهره ؛ لكنه لم يكن عاديا بما كان يضم كل ليلة من صفوة المثقفين و الأدباء و النقاد : الدكتور عبد القادر القط، الدكتور لويس عوض، أنور المعداوي، صلاح عبد الصبور، رجاء النقاش محمود السعدني، أحمد رشدي صالح، عبد المعطي حجازي، نجيب سرور، أحمد عباس صالح و غيرهم و غيرهم...

كان هذا الجمع المتميز من الأدباء و النقاد يلتقون على (رصيف مقهى عبد الله) بالجيزة كل ليلة.. يتحاورون، يقرأون لبعضهم البعض آخر إنتاجهم الأدبي.. يشكلون ملامح نهضة أدبية و ثقافية جديدة.

تدور بينهم أحيانا المعارك الأدبية بين القديم و الجديد.. بين أنصار التراث و أنصار الحداثة.. بين أنصار الرومانسية و دعاة الواقعية..)). (29)

حدث هذا في (ميدان الجيزة)، و في مقهى عادي ؛ مثله مثل مئات المقاهي المتواجدة بالقاهرة، و هيأ القدر لكي يكون لهؤلاء دور في الحياة العامة.

و مع آمتداد الأيام أصبح هؤلاء كبارا بعد أن كانوا يتمنون أن ترعاهم (صالونات الأدب) الأستقراطية كـ : (صالون طه حسين)، و (صالون عباس محمود العقاد) و سواهما من صالونات الأدب.

و عن (مقهى عبد الله) و جلساتها الأدبية، أتحفنا الناقد نعمان عاشور بهذه اللوحة القصصية قائلا : ((تعالى مثلا إلى ميدان الجيزة، و في صدره مقهى متواضع يعرف بآسم (قهوة عبد الله)، و على موائدها المتداعية ستجد طائفة من الأدباء في جلسات مستمرة، مادام المقهى لا يغلق أبوابه. فهناك في نهاية المكان تعود أن يجلس الشاعر العراقي إبراهيم الوائلي منصرفا إلى كتابة رسالته للجامعة، و السجارة لا تفارق شفتيه حتى إذا جاءت الساعة العاشرة بدأ يبحث عن مستمع لآخر أشعاره.. و موضوع شعره الحياة و الحرية، ثم ترى الدكتور عبد القادر القط.. يجذب أنفاسا من الشيشة في ملال، و يحاور الأستاذ أنور المعداوي ناقد (الرسالة) حول ضرورة العناية بالجانب الفني في كل إنتاج يستهدف غاية إجتماعية، متهما أنصار الأدب الواقعي بأن إنتاجهم فارغ، و مجرد ضرب من نشرات الدعاية !.

29- راجع (على مقهى الحياة) للدكتور سمير سرحان ط القاهرة 1996 ص 15.

و الأستاذ المعداوي لا يطيق الإنصاته، وإنما هـو يدفع بنظريته عن " الأداء النفسـي"، و يضرب على صدور الحاضرين بمرفقيه ليفسح السبيل أمام فكرته ! و كأنه لا يكتفي بتطبيق (الأداء النفسي) على ما يكتبونه فقط.

و الذي تصيبه معظم لكمات المعداوي، هو الدكتور محمد كامل حسين ؛ لأنه يجلس عادة وسط المتنافسين محاولا الحديث في هدوء.. و لكن هل يحظى بالحديث الهادي أما هذا الأداء النفسي المعداوي؟..

و عن بعد يجلس الشاعر محمود حسن اسماعيل... كيف يريدونه – بعد كل هذا المجد؟ - أن يشتغل مدرسا في مدرسة إبتدائية، مع أنه صاحب " أغاني الكوخ" ؟ إنه لا تهمه الدرجة و لا الوظيفة قدر ما يهمه أن يكون عضوا في اللجنة التي تختار ما يقرر من شعر على تلاميذ المدارس..

و من الطرف الآخر تلمح زكريا الحجاوي – وهو كاتب فحل جسما و قلما – تلمحه متألقا بين حلقة من المريدين " كالكرمبة" في وسط الحشائش.. وهو يعلق على تبلد الجالسين من لاعبي الطاولة .. و تبلدهم فإذا أخطأ واحد و تكلم عن الفن و الأدب إنفجر الحجاوي في هدير صاخب يحدثك عن الأدب المصنوع و الأدب الذاتي النوعي الموضوعي، و الصلة بين الكون و الفنان و أثر ذلك كله في موسيقى سيد درويش الحاصل على دكتوراه من الله ! ! .. فإن أسعدك الحظ و أقبلت عليه صباح يوم و له قصة في (المصري) فالتهنئة واجبة وهو يجلس لتلقيها من الصباح الباكر !..

ثم أنت ترى الأستاذ أنـور فتـح الله في يـده اليسـرى مبسـم الشيشة، و في اليمنى قلم و أمامه مسرحية فرنسية يترجمها، و كلمـا ترجـم صحيفة تلفت يبحث عن مستمع، و إذا لم يكن يترجم فهو ينقد، بآعتباره من خريجـي (معهد النقد) ؛ أي نـاقد مؤهل رسميا ! و بجـواره الأسـتاذ محمـود محمـد شعبان – غير باباشـور و الإذاعـة، كمـا يقـدم لـك نفسـه يحاوره في أدباء الصحافة و ما ينتجون من أدب فراغ.

و شـعبان أديـب متخصـص في كسـب جوائـز وزارة المعـارف العمومية.. و قد حصل في سنة واحدة على ثـلاث جوائز. و فجأة يهبط على الجالسين عزت حماد منصور ؛ وهو أديب ساخط متهكم.

ما فائدة الأدب و ما فائدة النقد ؟

ثم إن واحدا لا يقرأ إنتاجهم فليس في البلد قراء. لماذا يتعبون أنفسهم و يرهقون شبابهم؟.. أليـس الأجـدى لهـم الإنصـراف إلى حياتـهم الخاصـة ينظمونـها؟ فإذا سألته : لمـاذا ظـل يكتـب هـو نفســه ؟ أجـابك صائحا :

- مرض !..

ثم تخرج من /القهوة/ لا يخالجك شك في أن ما يقولـه إن هـو تنفيس عن الركود الذي يشيع في حياتنا الإجتماعية ذاتها..و لو حـاولت أن تقنعه بذلك من الفدائيين!..)) (30)

فـهكذا تبدو لنا الصـورة عــن (المكـان و الزمـان) في لحظـات هـدوء هـؤلاء الفدائيـين مـن الأدبـاء الجـدد، و عــبر تبـادل الآراء في المرحلة التاريخية المنقضية.

30- انظر (مجلة الفصول) القاهرية : مقال لنعمان عاشور عنوانه (ندوات أدبيـة على الأرصفة و في المقاهي البلدية) 4 فيفري 1951 م ص 28 و ما بعدها.

إن المجتمع الأدبي في المقاهي ؛ هو مجتمع صغير يحكي عن (سر الصنعة) و الحاضرون فيه كل له قصه، و الكل كان يسعى و يبحث عن المردود و الناشر، و يفكر في القراء من الأجيال القادمة.

و لا تعجب من قول الأديب عادل كامل و من إشاراته لمأساة الكاتب في أوضاعه المتردية ؛ فهو فاقد السند و الكتابة لا تفي بحاجياته الضرورية.

و قصة عادل كامل ؛ هي ككل قصص.. كل أديب عربي مكافح ؛ لم يلق حظه فهو -و منذ أن كتب (المليم الأكبر) - لم يكتب شيئا، و حجته في ذلك أنه هرب من الأدب إلى المحاماة، و آنقطعت صلته بأخبار الأدباء ؛ لأن الأدب أصبح بضاعة كاسدة و هذه البضاعة لا تفي بحاجيات صاحبها، و الحياة العصرية لم تعد تتسع للأدب و الفن.

و الواقع أن في مقولات عادل ما نختلف فيه أو نرفضه بالمرة و لكن، تتحسس أنه يسعى عندما تناقش صاحبها ؛ عمن يؤيد موقفه في هذه القضية. (31)

و عن جلسة أدبية جرت في مقهى من (مقاهي القاهرة) ؛ ينقل إلينا نعمان عاشور تفاصيل ما جرى فيها بدقة..

يقول عن جلاس المقهى الأدبي على وجه المفاكهة : ((أما الأستاذ أحمد باكثير ؛ فهو مجادل لا يبارى، وهو ينتصر بآبتسامته أكثر مما ينتصر بمنطقه، و أحب الموضوعات إليه تأثير العقيدة الإسلامية على مسرحياته و قصصه.

31- المدر نفسه ص 30.

و (باكثير) ينتج بكثرة ؛ لذلك كانت (سحنته) معروفة للقراء.

سألني صديق يعرفه يوما عن جنسيته؟.. فقلت له : إنه من " آسلامستان" و مازال صديقي يبحث عن دولة بهذا الإسم.

و تنتهي الندوة بحديث عن الزواج :

* الأستاذ السحار يهاجم نجيب محفوظ، لأنه لم يتزوج، و محفوظ يحاول الإستنجاد بالعزاب من الجالسين.

و باكثير يقول : " إن الزواج من ناحية العقيدة الإسلامية نصف الدين.)) (32)

- على أرصفة المقاهي :

و على أرصفة المقاهي ظلت علاقة الأدباء و الكتاب حميمية بآستمرار ؛ فكنت تسمع النكتة و النقد، و طرا ئف الأخبار، و تعليقات مشاهدة المسرحيات.

و ترى من الأدباء في المجالس من يعتذر لينصرف، و من يقبل على الجماعة بالكتب و الصحف اليومية.

و من جلاس المقاهي في (قهوة ستاسي) بميدان توفيق : الدكاترة : زكي مبارك... يجلس و حوله عدد من الضباء و تكون الساعة السابعة و النصف مساء.

و وسط جلسة مريحة يملي ما تجود به القريحة من مقالات يختلط فيها الشعر بالنثر على الصحف و الدوريات. (33)

32- المصدر نفسه ص 30.

33- نفس المصدر ص 31

و من مقاهي الأدباء في مصر : (جزيرة الشاي) و الكائنة بحديقة الحيوان بالجيزة، و كان العقاد و قبل أن ينتقل بندوته إلى مسكنه ؛ يلتقي فيه ببعض الأدباء و منهم : الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، و الطاهر الطناحي، و عبد الرحمان صدقي، و مصطفى السحرتي، و وديع فلسطين، و أنيس منصور.

و من مقاهي الأدباء :

" مقهى إيزا فيتش" بميدان التحرير، و كان يلتقي في هذا المقهى أحمد رامي بأحمد زكي أبو شادي، و مصطفى السحرتي، و محمد عبد المنعم خفاجي، و كمال نشأت، و كامل السوافيري الخ...(34).

و من جلاس (المقاهي الأدبية في مصر) الكاتب الكبير وديع فلسطين.

و نعمان عاشور يقول عن أخلاقيات وديع في المجلس الأدبي:

((فها قد حضر الأستاذ وديع، وهو وديع بأتم معنى الكلمة.. يسلم على الحاضرين واحدا واحدا سائلا إياه عن صحته و حاله و أحواله.

ثم يخشى أن يجلس على مقعد يكون معدا لغيره مع أن مقاعد الندوة لا تعد و لا تحجز، وهو مشغول بمحاضرة في (الجامعة الأمريكية) و مقاله يكتبه في (الأديب) البيروتية..

و مقابلة لابد منها لسفير الباكستان... ثم يغادر الندوة وهو يعتذر... و يعتذر..

34- انظر المقاهي الثقافية في القاهرة .. و التواصل بين الأدباء : بقلم شوقي علي هيكل (مجلة الهلال) بتاريخ1991/8/4 م ص 128.

لماذا؟.. الأستاذ وديع نفسه لا يعرف..)) (35)

- المقهـــى الأدبي.. و جدليـــــة الواقع التاريخي :

و أدبـاء المقـاهي مثلـوا أجيـالا و تيـارات سياسـية و فكريـــة ؛ فبعضهم أثر في جيله كنجيب محفـوظ.. و آخـرون كونـوا آتجاها ليبراليا تحريريا، و شكل قسم منهم تيارا يساريا و هم معظم أدباء (مقهى ريش).

و هنا لسائل أن يسأل هل وفرت المجـالس الأدبية فرصا للقاح الفكر و تجديده وتم فيها التعمق في أوضاع البلد من كل الوجوه؟..

و للإجابة أقـول : هـل بـالفعل تم هــذا، و نـدوات الكتـاب في المقاهي كـانت نـدوات مفتوحـة و حركـت الشباب و التقـى فيـها بكبـار الكتاب و طرح فيها (قضايا المكـان) و آرتبـاط المكـان بالحالـة التاريخية و يشير النـاقد أحمـد عبـاس صـالح إلى كـل هــذا فيقـول في مقالـه في صحيفة (الشرق الأوسط) اللندنية. (36)

((-كان المقهى في حياة جيلي من المصريين أساسيا، لم يكـن مكانا للتسـلية بـل للقـاء مع الصحـاب مـن الأدبـاء و المفكريـن الجـدد، و تعددت هذه المقاهي بحيث لا يسهل حصرها، و كان في بعضها شـيء من التخصـص ؛ فـهناك المقـهى الــذي يضـم السياســيين بصفـة خاصــة، و كانت القاهرة تغلي بالتيارات المختلفة و كنا نـرى الزعماء العرب مـن المشرق و الغرب و هـم في المعارضة، و كـانت الخمسينات بصفة خاصة قمة نشاط حركات التحرر الوطني في المنطقة،

35- (مجلة الفصول) القاهرية : نعمان عاشور 4 فيفري 1951 ص 31.

36- صحيفة /الشرق الأوسط/ اللندنية العدد 7836 بتاريخ 2000/5/12.

و أذكر أنني حتى قبل ذلك بكثير في سن المراهقة كنت أمشي أنا و أصدقائي الذين بدأت القراءة تستهويهم إلى جوار المقاهي المشهورة لنرى مثلا الشيخ علي عبد الرزاق صاحب الكتاب المشهور " الإسلام و أصول الحكم" و الذي نغص حياته تماما، و إن لم يمنعه بعد ذلك من أن يعين وزيرا للأوقاف في فترة من الفترات، و كنا نمشي إلى جوار سور بيت الشيخ مصطفى عبد الرزاق شقيقه و أستاذ الفلسفة الإسلامية الشهير الذي صار شيخا للجامع الأزهر، و لم يكن السور مرتفعا و لذا كنا نرى الجالسين في الحديقة و نقول همسا هذا طه حسين و هذا هو الزيات أو هيكل أو أحمد أمين. و لكننا كنا نفعل ذلك في حذر خوفا من أن نكون متطفلين. و في المقاهي التي يغلب على روادها الاهتمام السياسي رأينا الكثيرين و جالسناهم من السياسيين الذين صاروا بعد ذلك رؤساء لدولهم مثل الحبيب بورقيبة و رؤساء أحزاب و وزارات مثل علال الفاسي، و لكن الزعماء الأكثر شبابا مثل أحمد بن بيللا و هواري بومدين كانوا أقرب إلينا و قد قضيا وقتا غير قصير في القاهرة. ثم صار المثقفون العرب يوجدون بشكل أو بآخر في القاهرة و يلتقون معنا في هذا المقهى أو ذاك. و يبدو أن المقهى صار بديلا عن المنزل منذ فترة بعيدة ربما ترجع إلى الفترة التي قضاها جمال الدين الأفغاني في القاهرة في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، و أذكر أن البيت القاهري في بداية النصف الثاني من القرن العشرين أصبح مكانا للنوم أو للراحة أكثر منه مكانا للقاء. بالطبع لم يكن هذا بشكل مطلق، إذ كنا نلتقي أيضا في البيوت، و لكن كان هذا لفترة قصيرة لنخرج بعد ذلك إلى المقهى. وكان من الممكن أن نمر على أكثر من مقهى في الليلة الواحدة. و من المؤكد أن الحياة

الثقافية و السياسية كانت تتألق في المقاهي أكثر منها في أي مكان آخر في القاهرة.

و كانت هناك شروط لاختيار المقهى كالهدوء مثلا و ان رواده لا يضيعون أوقاتهم في ألعاب التسلية المختلفة ذات الضجيج، و بعض المقاهي كان يخصص مكانا داخليا لهذه الألعاب بحيث يعطي الفرصة للرواد الآخرين لأن يتبادلوا أطراف الحديث. و لم تقتصر هذه المقاهي على المثقفين ذوي النزعات الأدبية، إذ كان أساتذة الاقتصاد أو العلوم أو القانون يلتقون أيضا في المقاهي، و يبدو أنه في هذه اللقاءات كانت تناقش القضايا العلمية و الكتب الجديدة، و بالتالي كانت ضرورية لتبادل الآراء و المعلومات و الكثير من الكتابات الهامة نوقشت في مثل هذه الجلسات قبل أن تظهر في كتب أو مقالات في الصحف. و لذا كان الناشطون في مختلف المجالات الثقافية يعرفون بعضهم البعض، فكتاب القصة يتعارفون و يتنافسون و ما أن يظهر اسم جديد حتى يلتفت إليه الجميع لتقدير موهبته. و كثيرا ما كنا نقرأ أعمال بعضنا البعض قبل النشر و نناقشها بحماسة مما قد يؤثر على تكوين هذه المسودة فيما بعد بالتغيير أو الحذف أو حتى الالغاء أحيانا.

و لم تكن جلسات المقهى مغلقة على جماعة معينة، و لكن لم يكن من السهل أن يهبط شخص لا يعرفه واحد من أفراد هذه الجماعة فيجالسهم. كان الأمر يستدعي نوعا من الطقوس من أهمها أن يقدمه شخص ما، و ان كان يحدث أن ينضم كاتب شاب صار معروفا إلى جلسة ما بعد أن يعرف نفسه. و أذكر أننا صرنا نقرأ قصصا قصيرة لكاتب يدعى نجيب محفوظ عبد العزيز في مجلة الرسالة و كانت قصصا جيدة بغير شك، و لكنها لم تكن حدثا أدبيا، و ربما كان نجيب محفوظ قد نشر في

هذا الوقت رواياته الفرعونية الثلاثة ثم القاهرة الجديدة و لكن عندما نشر رواية "زقاق المدق" صارت حدثا. و كنت أتطلع إلى الكتب خلف نافذة إحدى المكتبات في ميدان الأوبرا فلفت نظري هذا العنوان الغريب، فها هو ذا كاتب يكتب عن الحياة الشعبية، و آشتريت الكتاب و عندما قرأته شعرت أن الكتابة التي كنت أحلم بها قد تحققت و لكن عن طريق كاتب آخر.

و في هذا الوقت كنت أعرف الكاتب عادل كامل الذي نشر روايتين جميلتين هما " مليم الأكبر" و " ملك من شعاع" و كان قد حصل على جائزة المجمع اللغوي عن هذه الرواية الأخيرة التي تناولت حياة الملك الموحد اخناتون. و بالصدفة قابلته في الشارع فقلت له عن اكتشافي العجيب لكاتب عظيم يدعى نجيب محفوظ فلم يبد عليه الاستغراب و قال أنه قرأه و سألني : هل تعتقد أن "زقاق المدق" تطاول " عودة الروح" لتوفيق الحكيم؟فقلت له بحماسة زائدة انها شيء جديد تماما بالنسبة للرواية العربية بشكل عام. كنت في العشرين من عمري و كنت قد بدأت أكتب في الصحف، و كنت طبعا بالغ الحماسة. لم يقل لي عادل كامل شيئا في لقاء المصادفة هذا، و لكنه بعد أسبوع قال لي : هل تحب أن ترى نجيب محفوظ فقلت بالطبع أريد أن أقابله. و في الموعد كنت أصعد سلالم "روف جاردن" كازينو بديعة في الأوبرا. و منذ هذا التاريخ و أنا ألتقي بنجيب محفوظ بشكل منتظم في هذا المقهى أو ذاك و التقي بالكثير من الكتاب الذين تضمهم جلسة كازينو بديعة.

رأيت كثيرين تعلقت بهم بعد ذلك مثل علي أحمد باكثير و سلامة موسى و محمد مندور. و شاهدت مصطفى أمين و صلاح أبو

سيف و كان نجيب محفوظ يكتب بالتعاون مع المخرج سيناريوهات الأفلام حتى يفي بمتطلبات حياته التي لم يكن راتب الوظيفة يغطيها. وفي هذا الوقت علمت أن مصطفى أمين الذي كان صحفيا كبيرا لامعا قد عرض على نجيب محفوظ أن يعطيه راتبا شهريا ضخما بالقياس إلى أسعار هذا الزمان ليكتب قصة أسبوعية تنشر في مجلة "آخر ساعة" التي كان مسؤولا عنها، و لدهشتي وجدت أن نجيب قد اعتذر عن قبول هذه الدعوة و عندما ناقشته بعد ذلك علمت أنه كان قد نذر وقته للرواية و لا يريد أن يشغله عنها شيء آخر.

لقد تلقيت صدمات عديدة في جلسات نجيب محفوظ منها رفضه هذا المبلغ الكبير بكل بساطة و دون لحظة واحدة للتفكير. و منها قدرته الغريبة على تقبل الآراء المختلفة و المتناقضة باحترام، و على تفهمه الموضوعي لكل وجهة نظر. و كانت الجلسة بالطبع تضم أشخاصا مرتبطين بهذه الأيديولوجية أو تلك، و كان كل منهم ينافح عن وجهة نظره بعنف أحيانا و بثقة خالصة في صحة آرائه، و لكن نجيب محفوظ لم يغلبه الانفعال للانحياز إلى هذه الفكرة أو تلك، و لذا كنت أحتار بيني و بين نفسي لأعرف اتجاهاته الفكرية الحقيقية، و عندما انشغلت باعداد أعماله للإذاعة و السينما عرفت أنه باحث عن الحقيقة و حسب. وهو شيء بالغ الأهمية ظل يؤثر في تفكيري حتى اليوم.

في جلسات المقاهي هذه تعلمت أشياء عديدة في بداية حياتي الأدبية، و مازلت أعتقد أن ما تعلمته فيها أكثر كثيرا مما تعلمته في الجامعة. لقد تعلمنا السياسة و الأدب و الفلسفة و الفن و طرق التفكير. فهذه الجلسات كانت تضم الفنانين من مختلف الاهتمامات فنعرف الشيء الكثير عن فن الرسم أو النحت أو العمارة أو الموسيقى أو

المسرح. و كانت ندوة نجيب محفوظ ليست إلا ندوة من الندوات الكثيرة التي يتحرك فيها الشباب و يلتقون بالكبار و يتعلمون منهم أو يتحرشون بهم أحيانا.

لا أظن أن هذه اللقاءات متيسرة الآن، و هناك بعض الأمكنة المغلقة التي يتلاقى فيها الكتاب، و لكنها ليست تلك الندوات التي كان يتصدرها الكبار و يلتف حولهم أشخاص لامعون من جيلهم و يتقبلون في ما بينهم أفرادا من الأجيال التالية لهم. فحين كنت أذهب إلى جلسة توفيق الحكيم كل يوم جمعة في الصباح بصالة فندق سميراميس كنت أرى رفاقه من الكتاب و السياسيين و الفنانين. فعنده جالست و جادلت يوسف وهبي الذي عمل معي في مسلسل ثلاثية نجيب محفوظ الشهيرة، و شاهدت و جادلت مصطفى مرعي وهو سياسي محافظ من الجيل القديم و تعرفت بشكل مباشر كيف كان هذا الجيل يفكر و يتصرف و كذلك التقيت ببعض زعماء حزب الوفد القدامى ؛ الذين كنا نقرأ عنهم في الصحف و لا نكاد نلتقي بهم في الحياة اليومية. كم كان هذا غنيا ثقافيا و مليئا بالخبرات البالغة الثراء.

أعتقد أن هذه فترة لها خصائصها مرتبطة بظروف اجتماعية و تاريخية و كانت مصر كلها متوهجة تفكر و تناقش و تتصادم في كل مكان. كان كتاب المسرح يعبرون عن المشاكل الفكرية التي تناقش في هذه الجلسة أو تلك. و كذلك يفعل كتاب السينما و الإذاعة و الصحف، و كنا نرى المسرحية أو الفيلم أو نستمع إلى تمثيلية الإذاعة و كأننا نتجادل من خلال المسرحية أو الفيلم أو التمثيلية.

تذكرت هذا كله و أنا أقرأ خبرا عن ظهور قهوة "ريش" الشهيرة مرة أخرى. و أنها فتحت أو سوف تفتح أبوابها عن قريب. فهل ستعيد

سورتها الأولى؟ لقد لعبت قهوة ريش نفس الدور و ظلت ملتقى للأدباء و الفنانين و السياسيين إلى السبعينات. و كان نجيب محفوظ قد اختارها ليلتقي بأصدقائه و الشبان منهم بصفة خاصة. و من الصعب أن تجد آسما من الكتاب أو الفنانين لم يحتل هذا المقهى جزءا من حياته. فهل مازال للمقهى دور في الحياة الثقافية و الفكرية في القاهرة؟ أم أن المقهى الثقافي مرتبط بأحوال و ظروف لم تعد مصر مهيأة لها الآن؟

يبدو أن المكان ليس هو المهم، فالذي ينشئ المكان هو الحالة التاريخية و الفكرية التي يمر بها المجتمع و ليس من المستبعد على أية حال أن يكون تحت رماد القاهرة شيء من وميض النار.

نجيـــب محفوظ... صورة من قريب !..

- كـــــاتب يبحث عن سؤاله :

أحمد ربي أنني التقيت بنجيب محفوظ أكثر مـن مرة و عشت في عصره؛ هذا العصر الذي أنجب عباس محمود العقاد، و زكي نجيـب محمـود، و أنيس منصـور، و يوسـف إدريـس، و زكـي مبـارك، و جمـال الغيطـاني، و عبـد العزيز شـرف و محمـد عبـد المنعـم خفـاجي، و محمـد مندور، و سمير سرحان..و سواهم..

و أحمد ربي أنني إقتربت ولو متأخرا من حضور وعيه مباشـرة، و إنــني واكبــت مسيرة الرجــل منــذ صـدور " الرسـالة الجديــدة" في الخمسينات .. و أحسست منذ لك التاريخ أن لهـذا الكـاتب ما يميزه في صنـع المواقـف، و في الإقـتراب مــن الواقــع الشــعبي، و في العمليــة الإبداعية ككل.

و آقتربت من الرجل، و حضرت الكثير من مجالسه، و لامست دفء نبضـه، و عاشرته في بعض جلسـاته و بـالخصوص في مقر (صحيفـة الأهرام) و في مكتبه : أولا رفقة الكاتبين غالي شكري و لويس عوض، ثم في حجرة رقم 607 بالدور السادس بعدما آنتقل إلى هذه الحجـرة إثر وفاة صديق عمره الأستاذ توفيق الحكيم.

-- مع محفـــــوظ في الطابق الســـادس :

و في إحـدى جلسـات هـذا الكـاتب القدير و بحضـور الدكتـور محمد عبد المنعم خفاجي، و ثروت أباظة، و صبري السـيد. و عبد العزيز شرف و فتحي العشري ؛ توجهت إليه بالسؤال التالي :

- فيما أعلم أن روايتكـم المفضلـة : (رحلـة آبـن فطومـة) نشـرت سـنة 1983، وهي رواية جيدة بلا شك، و راعـني أن بطلها كـان علـى علاقة بالحضـارات و التـاريخ، و لذلـك طـاف و جـال ؛ فـهل هـذا تصنيـف في التاريخ أو الكتابة هي صاحبها ؟.

و أجـابني الكـاتب الكبير نجيـب محفـوظ وهـو يـستعيد أفكـاره و هدوءه :

* شخصيا إني لسعيد لسماع هـذا الـرأي.. و أنا لـست بـالمؤرخ لا لنفسـي و لا للأحداث ؛ و أرى أن الكتابة : هي صاحبها..

و الرواية يجب أن تقرأ كرواية و كرؤيا..

و أحمد ربي أني كنت مقتنعا بكل إجاباته ؛ فهي ذات مضامين و إجاباته دائما كانت مقنعة ؛ لأن نجيب محفوظ فيها كان يمثـل الوعـي بما حدث و يحدث، و قد ظل دائما يقوم بزيارات عديدة يبحـث عـن (المدينـة الفاضلـة) في أسـئلته و نتاجاتــه، لذلـك رأينـاه يقـوم بزيـارات عديـدة للمجتمـع البشري منـذ فجـر حضاراتـه، و رسـم بملامـح الكــاتب الفنان صورة هذه المدينة التي إرتآها في سـردياته و تتمثـل في (مدينـة الحرية و العدل الاجتماعي).

و شـيئان لم يغيبـا في معظـم جلســات محفـوظ : (الســيجارة) و (فنجـان القهـوة)، و تعـوّد محفـوظ أن يحتسـي (وجـه الفنجـان) فقـط.. و كثيرا ما طلب فنجانا آخر.

و سألت محفوظ ذات يوم.. سألته – و بمحضر غالي شكري وصبري السيد و فتحي العشري : (نحن في عصر المتغيرات، و كل شيء يتغير ؛ فهل الأديب يتغير مع هذه المتغيرات؟.

و أجابني الكاتب الكبير بلهجة الواثق بما يقول :

* كل شيء يتغير إلا الموقف الرجولي المبني عن قناعات.. و أقنعتني إجابته فمحفوظ يمتلك ورقة قديمة تعرض في مقابلها أثمان عالية ؛ أو ليس هو مغرم بالموروث، و مغرم بالمتابعة، و بوصف التفاصيل المادية و النفسية ؟ و في ظني أن هذه التفاصيل ماهي إلا تنويعات و قد تساعد في تفسير الأحداث و تلوين الشخصيات و الأنماط و حسب مصائر هؤلاء.. و في نتاجات محفوظ رأينا أنماطا عديدة لهذه المقاييس و حصل شيء من هذا في (خان الخليلي)، و (في بداية و نهاية)، و تم حتى في تلاحم الأرضية الاجتماعية و السياسية مع الوقائع الذاتية في بعض نتاجاته الروائية كـ.. (الكرنك)، و (ثرثرة فوق النيل).

و قلت له في جلسة أخرى و بحضور غالي شكري و لويس عوض :

– أأنتم الحارس للحلم الاجتماعي في ضوء ما ترى و تقترب منه؟.. فضحك نجيب محفوظ من قلبه و قال..

* يأخذك الواقع و الإقتراب منه إلى المتابعة في المجتمع البشري، فلا ترى أحسن من الفضائل !..

إن الفضيلة تعرف الناس بالتاريخ و المثل، و بالدلالة الإجتماعية، و بالحاكم العادل، و الحاكم الضعيف و غير القدوة.

و سألته عن بعض المآخذ في ثورة يوليو 1952.

و علت وجهه علامات الغضب و قال :

* كانت الثورة شيئا إيجابيا بوجه عام و قامت بإصلاحات جذرية، و صحيح إنني وفدي، و تأثرت بثورة 1919 و بسعد زغلول و بأدبيات ثورته ؛ لكنني لم أكن أبدا ضد ثورة 1952 و لا أعتبر من خصومها .. على أنني إنتقدت الثورة ؛ لأنها لم تلتزم بالدستور و لا بالديمقراطية، كما آنتقدت سياسات الفساد في عهد الملوكية، و سياسة الإنفتاح في عهد السادات في روايتي (يوم قتل الزعيم).

و المهم هو أن نمضي في إعلاء قيمة الديمقراطية .. و في ظني لو آلتزمت الثورة بالديمقراطية ؛ لما حدثت هزيمة 1967 و المطلوب منا الآن ؛ هو إصلاح النفوس، و أن نسعى إلى تكوين (رأي عام حرّ)، و برلمان قوي، و رأي معارض ينبّه إلى الخلل و يبصّر بالمخاطر.

و تعددت لقاءاتي بالكاتب الكبير نجب محفوظ، و حاورته في شؤون فكرية كثيرة و في أعماله الإبداعية كـ : (الثلاثية)، و (اللص و الكلاب)، و (زقاق المدق) و غيرها و أوردت جزءا من آرائه في كتابي "أحاديث في الأدب"، (37) و "أدباء من مصر" (38) كما سعدت بتقديم كتابي :

" مقاهي الأدباء في الوطن العربي" (39) من طرفه.

فهكذا يتجلى لي محفوظ المبدع، و الظاهرة، و القيمة المستقلة.

37- صدر عن الهيئة العامة للكتاب عام 1986.

38- صدر عن دار مدبولي بالقاهرة سنة 1999م.

39- صدر عن الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة عام 1999.

و في مسارات الأيام نرى محفوظ الحاضر و الماضي، و الصيرورة التاريخية و الحكمة ؛ التي تتجسد أمامنا في سلوك يمشي على قدمين.. و أحببناه لأنه سمة تكاملية، و آتجاه لحياة مستقلة، و شاهد على عصر بتحولاته، و عن تاريخ بتناقضاته و تعرجاته بين دوائر الوعي المتعددة.

و مما تجدر الإشارة إليه ؛ هو أنني كلما إلتقيت بهذا الروائي الكبير إلا و فاجأني بمودته و حكمته و أسئلته عن الحياة و تجلياتها في الزمان و المكان.

و شدني الرجل بتواضعه الشديد، و بروحه المرحة، وهو يشعرني بآستمرار بأنه يعيش ليتعلم. و أن أحب شيء إلى نفسه هي القراءة و الكتابة.

و حدثني نجيب محفوظ عن نصوصه التأسيسية الأولى، و عن السيرة الذاتية، و عن مدونة السرد، و نصوص التجاوز، و (حكايات أولاد حارتنا)، و عن ثورة 1919..

و عن صلاته بـ (أهل المغنى).. يقول عن زكريا أحمد : هو فنان قدير، و من أطرف الشخصيات الذين عرفتهم في حياتي ؛ فهو (آبن بلد) على المستوى الإنساني (40)، وهو غير مغرم مثلي بالقراءة، و ربما (زقاق المدق) هي الرواية الوحيدة التي قرأها لي (41).

40- صحيفة (الأهرام) : بتاريخ 23 ماي 1998.

41- المصدر نفسه

و نجيب محفوظ له تقدير خاص لسيد درويش يقول عنه : ((لو امتد به العمر لفعل ما فعله محمد عبد الوهاب ؛ لأنه كأن ثائرا على الموسيقى التقليدية)) (42) و يعترف بأن علاقاته بزكريا أحمد تواصلت من بداية الحرب العالمية و حتى وفاته عام 1962م، و يشيد بعبقرية هذا الفنان و يقول عنه : (إني تأثرت بشخصيته في قصة قصيرة كتبتها بعنوان (الزعبلاوي). (43)

فهذا هو نجيب محفوظ الإنسان و المبدع و عميد الرواية العربية بلا منازع ؛ هو مبدع و متنوع الاهتمامات و شخصية ذات آقتدار، و عاشت هذه الشخصية في صلب الأحداث، و تأثرت بوقائع الجيل و بشخصيات عديدة وهو القائل عن : (مصطفى النحاس و سراج الدين) إنهما كانا على علم (بتنظيم الضباط الاحرار) ؛ و لكنهما لم يبلغا الملك فاروق و تسترا على التنظيم. (44)

- محفوظ .. و الحرافيش و الحارات الشعبية :

و حكايات الرجل شائقة و لا تنتهي مع الأصدقاء و الأدباء، وهي حكايات تأخذك إلى الأحياء القديمة في مصر المحروسة ؛ حيث (حارة درب قرمز)، و (الجمالية)، و (الحسين)، و (خان الخليلي)، و (الموسكي)، و (الغورية) و سواها من الحارات العتيقة.. و الأحياء العتيقة ؛ هي التي شدته و شهدت مولده و ذكريات طفولته و صباه.. أو لم يكن ميلاده في (حارة درب قرمز) بالجمالية يوم 11 ديسمبر

42- صحيفة (الأهرام) : رجاء النقاش بتاريخ 23 ماي 1998

43- المصدر نفسه

44- نفس المصدر

1911؟.. أو ليس هو القائل عن بيتهم هناك : ((كنا نسكن بيتا مستقلا، أو بالمعنى الدارج بيت من بابه، و من الممكن أن تطلق عليه (بيت راسي) بالمعنى الحديث، كل طابق كان يحتوي على حجرة صغيرة و أخرى كبيرة، ثم أخيرا السطح ؛ حيث نجد غرفة صيفية كنا ننام فها خلال أيام الحر؟..)).

" كانت الحارة في ذلك الوقت عالما غريبا ؛ حيث تتمثل فيها جميع طبقات الشعب المصري ؛ تجد مثلا ربعا يسكنه ناس بسطاء.

أذكر منهم عسكري بوليس، موظف صغير في (كبانية المياه)، امرأة فقيرة تسرح بفجل أو لبّ، و زوجها ضرير، لهم حجرة في الربع، و أمام الربع مباشرة تجد بيتا صغيرا تسكنه آمرأة من أوائل اللواتي تلقين التعليم و توظفن، ثم تجد بيوت أعيان كبار مثل (بيت السكري)، (بيت المهيلمي)، (بيت السيسي) و بيوت قديمة أصحابها تجار أو من أولئك الذين يعيشون على الوقف، كنت تجد أغنى فئات المجتمع، ثم الطبقة المتوسطة ثم الفقراء..). (45)..

و لو سألتموه :

- لماذا أحب الحارات الشعبية؟

* يجيبكم على جناح السرعة : ((الحارات الشعبية)) ؛ هي مواطن إلهامي و نشأت فيها.. و في (حي قرمز) بالقاهرة ترعرعت قبل الإنتقال إلى رياض (العباسية)، و قد ظل قلبي معلقا بأحياء (الحسين) و (الأزهر)، و (السيدة زينب)، و (خان الخليلي).

45- نجيب محفوظ.. يتذكر : جمال الغيطاني ط بيروت 1980 ص 10.

و هـذه الأحيـاء كـانت هــي مواطـن إلهـامي، و جسـدتها في أعمالي الروائية وفي قصصي القصيرة..

جسدت في رواياتي مرح الصبيان و النسون، و تعميرة (الشيشـة)، و غرائز الناس و الجمال و القبـح، و صينية الحمام، و البرغل، و المعلم الرهيب ؛ الذي أنهكته الأمـراض دون أن يـتزوج، و جسـدت سـاعات المرح مع الخلان.. و صورت من أذبلهم الحشيش.. و العيون التي غارت في محاجرها نتيجة تفشي السل.

لقد رسمت سطورا لكل من عايشتهم في الحارات الشعبية كـ : (قرمز)، و (الأزهر)، و (خان الخليلي).. و رسومي و صوري استمدتها من تلك الأحياء بعدما عشت فيها، و ترددت عليها مع الأصحاب و الخلان. (46).

و عن مرابع الصبا و الطفولة يقول محفوظ عن (حي الجمالية) :

((حنيني إليـها ظـل قويـا، دائما، كنت أشعر الرغبة في العـودة إلى الجمالية.. إلى أصدقائي هناك، ما الذي يسر لي هذا و بآنتظام؟.

كان لنا صديق من (شلة العباسـية) توقـف عـن الدراسـة و آنتقل للعمل مع والـده في دكـان (منيفا تـوره) بالغورية، كنـا في الإجازة، في العطلة المدرسية، كانت أكـثر مـن أربعة شـهور، كـان يقـول لنـا: لابـد أن تجيؤوني يوميا، كنا عندئذ نقطع الطريق سيرا على الأقدام، بدءا من

46- انظر (أحاديث في الأدب) : رشيد الذوادي ط القاهرة 1986 ص 33 و ما بعدها.

ميدان فاروق (ميدان الجيش حاليا) ثم شارع الحسينية، ثم بوابة الفتوح، فشارع المعزّ، كان لابد أن نمشي حتى الغورية لأستمتع بالمنطقة، و عندما نصل إليه نبقى معه حتى يغلق الدكان، ثم نمضي إلى مكانين، كان يفضل الجلوس فيهما (مقهى زقاق المدق) و (مقهى الفيشاوي).

عرفت (زقاق المدق) بفضل صاحبنا هذا، الحقيقة كان بيني و بين المنطقة و الناس هناك، و الآثار ؛ علاقة غريبة تثير عواطف حميمية و مشاعر غامضة، لم يكن ممكنا الراحة فيما بعد إلا بالكتابة عنه..)) (47)

- حكـــايات من الذاكـــرة :

و الرجل إذا ما آطمأن إليك يفتح لك قلبه... و يروي حكاياته... وهي حكايات العطاء بلا حدود.. و أقول عن حكاياته : إنها مليئة بمرجعيات التاريخ، و بتأثيرات الواقع السياسي على الحياة العامة، و بمنظومة القيم و المعايير و الثوابت المعرفية و الأخلاقية و السلوكية.. و محفوظ في أقواله يتذكر العقاد عازف القانون في (فرقة أم كلثوم)، و يتذكر أجيالا من رواد الكاريكاتير، و حتى الشيخ محمود صبح ؛ الذي أحبه من أجل مكارم أخلاقه، ولكونه متحدثا لبقا وعاشقا للنكته، ويقول عن حفلات عبد الحامولي ومحمد عثمان : إنه لم يحضر هذه الحفلات ولكنه آستمع إلى بعض أعمالهما بصوت (صالح عبد الحي) في محطة الإذاعة منذ تأسيسها عام 1934 و يقول كان

47- النص الكامل في كتاب : (نجيب محفوظ.. يتذكر) : جمال الغيطاني ط 1980 ص 18.

أصدقائي يسخرون منه و يسمونه (حمار المحطة). (48)

و ثورة 23 يوليو 1952 يراها محفوظ أنها أقل الثورات عنفا و دموية، و أن أول مشكلة واجهت الثورة هي ما سمي بـ (أزمة مارس 1954) عندما حدث صراع على السلطة بين فريق عبد الناصر و أنصار محمد نجيب.

و نجيب محفوظ – و كما حدث رجاء النقاش في إحدى الجلسات – أنه لم يكن يخطر بباله أن يقوم الجيش بآنقلاب عسكري يطيح بالحكم الملكي سنة 1952م رغم أن سهرات (مقهى عرابي) بالعباسية قبيل الثورة جمعت عددا من الضباط الأحرار ك : جمال سالم و عبد اللطيف البغدادي. و سواهما من الضباط..

- نجيب محفوظ.. في فعل الزمن و آستجابات الإتجاهات :

و نجيب محفوظ كان يتابع معارك الأدباء، و يحدثك عن تأثره بسلامة موسى أحد رواد الإشتراكية و العلم في العصر الحديث، كما يحدثك عن التشكيل الروائي و أسلوب المدرسة الفنية. التي ينتمي إليها دون أن يكون متورطا بالضرورة في لعبة الإنحياز. و عن عالمه الروائي الواقعي لما ألف (عبث الأقدار) و (زقاق المدق)، و (خان الخليلي) و (بداية و نهاية) و حتى (الثلاثية).

و عن دور الأديب يرى نجيب محفوظ أنه لا بد أن يقدّس مهنته. و يعشق قلمه و يبتعد عن السلطة، و يقول عن نفسه : من أجل الأدب آبتعدت عن السياسة ؛ و لكني آنتقدت عبد الناصر دون خوف من عقابه. و آنقدت السادات و عصر الإنفتاح.. و هيكل كان يشكوني إلى

48- صحيفة الأهرام بتاريخ 1998/5/23م.

توفيق الحكيم، و صلاح نصر إستجوبني حول رواية (أولاد حارتنا)، و المشير عامر هدد بتأديبي، و لكن عبد الناصر دائما يتدخل لفائدتي.

و يذكر رجاء النقاش عن الكاتب المبدع نجيب محفوظ أنه في فترة نشر رواية " أولاد حارتنا" في (الاهرام) ؛ كان نجيب محفوظ من رواد "كازينو أوبرا" و في (الندوة الأسبوعية) ؛ لاحظ وجود فتاة جميلة، و عرف أنها آبنة أخت الدكتور حسن صبري الممثل الشخصي للرئيس عبد الناصر.. و أقبلت عليه في آخر الندوة و قالت له : علمت بأن سيارة محملة بمجموعة من العسكر قصدت منزلك لآعتقالك و قبل أن تصل صدر لها الأمر بالعودة و عدم إكمال المهمة . (49)

و عن الكتابة و أوقاتها يقول :

* الوقت من ذهب كما قيل، و أنا حريص على آفتكاكه. و أنا بالطبع أضع وقتا للكتابة، و ربما يتكون الخلق قبل ذلك.

- و عن الرواية العربية ؛ و هل هي مقترنة بالتسامح؟.. و يجيب محفوظ بقوله :

* الرواية ظلت دائما مقترنة بالتسامح، و جسدت عقلانية الإستنارة، و تناولت ثوابت الحاضر و الماضي، و مشكليات حرية الفكر و حق الإختلاف.

49- الأهرام 1998/5/23

و عن رأيه في التصوف.. يقول :

* أنا مع الحياة ، و ضد أي شيء يبعدني عنها، و التصوف له مرجعيات و لي رأي فيه، فإذا ما كان التصوف يفهم بمعنى العشق الإلهي ؛ فهذا شيء جميل و فعل طيب.– و سألته : و متى أديت لأول مرة الصلاة ؟

- أجابني "حينما كان سني سبع سنوات.

– و بوصفكم تأثرتم بالدين منذ أيام الطفولة ؛ فكيف ترون الصوم ؟

– ((عبادة، و أول مرة صمت فيها كان عمري سبع سنوات.. كنت أيامها أنتظر (آذان المغرب) و (مدفع الإفطار) من فوق السطوح، بالجمالية.))

– و ما المقصود بـ (شلة الحرافيش؟)

المقصود بها الصعاليك، و صاحب التسمية هو أحمد مظهر، و وجد هذه التسمية في كتاب (الجبرتي).

و أحمد مظهر هو مثقف كبير و موهوب، و مغرم بالإطلاع، وهو من الضباط الأحرار، و كان له دور في التمهيد لقيام ثورة 23 يوليو ؛ حيث قام بالاتصال بصهره الدكتور محمد صلاح الدين والد زوجته و وزير خارجية مصر يطلب منه أن يقنع النحاس باشا رئيس الوزراء بمؤازرة الثورة ؛ عند قيامها، و لكن النحاس باشا رفض الفكرة ؛ حيث كان يرى أن الجيش ينبغي أن يكون بعيدا عن السياسة.

- محفوظ. في عيون النقاد :

و إذا ما كان الناقد سامي خشبة يذكرنا بنقاد الأدب و رؤاهم في إبداع نجيب محفوظ الروائي و القصصي فيقول : ((إنه يمكن

تقسيم إبداع نجيب محفوظ إلى عدة مراحل و النقاد يصفون المرحلة الأولى بأنها "وجدانية في إشارة إلى الطابع العاطفي المثالي – الغالب – علـى الروايـات الفرعونيـة) فيسقطون بذلـك النزعـة الإجتماعيـة – الطبيعية – الغالبة على المجموعة القصبية الأولى، وهي النزعة التي سادت على الطابع العاطفي في الروايات (الواقعية) التالية (من القاهرة الجديدة) عام 1945 حتى (السكرية) عام 1957.. و ذلك أيضا رغم ما يتجلى في روايات هذه (المرحلة) الثانية من غلبة الرؤية الإجتماعية الأخلاقية مع مزيج من عاطفية وطنية و عائلية مختلطة بعقلانية إنتقادية واعية بالتطور التاريخي لكل من (المعرفة) و (الميول النفسية) لنفس الطبقة الوسطى و للإنسلاخ التلقائي لأجيالها الجديدة من (العالم القديم) بفضل آختلاف نظم المعرفة و المناخ السياسي.

تبرز بعد ذلك رواية فريدة واحدة تمثل (مرحلة) في حد ذاتها، هي (أولاد حارتنا) التي آكتشف فيها نجيب محفوظ ميزات البناء الأدبي لكل من القصص القرآني، وقالب السيرة الشعبية من ناحية، و التي طمح فيها من ناحية أخرى إلى رسم لوحة ملحمية هائلة للكفاح الروحي العظيم للإنسانية بضمان من أصلها المقدس الواحد، و في إطار من التصور الديني للتاريخ من أجل تحقيق مثلها العليا في العدل الإجتماعي و الحرية السياسية و الفكرية التي يكفلها قانون عادل يحقق المساواة الواقعية بين البشر.

غير أن المنظور الإنتقادي الأخلاقي و الإجتماعي الذي كتبت به الرواية (أو رسمت به أجزاء و فصول اللوحة الملحمية) و الأسلوب الشاعري المتعاطف مع البشر، و هم يجتازون تاريخهم المليء بالمحن

و قليل المسرات يؤكدان أن رؤية نجيب محفوظ و أسلوبه الفني يواصلان (النمو) رغم ما يبدو على الموضوع و بنائها من تمايز أو آختلاف عن غيرها من أعماله الأخرى ؛ التي تأخذ موضوعها من الحياة الإجتماعية الواقعية، أو تسعى إلى محاكاتها و خلق واقع (مواز) لها، (وهو آختلاف سوف يتردد كثيرا بعد ذلك في بعض الروايات و القصص كما سوف تبرز أعمال أخرى ؛ و تبدو (فريدة) بصفات مميزة أخرى : في مجموعة (الشيطان يعظ) 1979 ؛ مثلا يلجأ إلى الشكل الحواري المسرحي أحيانا و إلى التراث العربي يستمد منه مادة (الحكاية).

و في رواية (ملحمة الحرافيش) عام 1977 يعود إلى جو الحارة المصرية و صراعات الفتوات الذي نسج منه (أولاد حارتنا)، و صاغ جوها، و فيها يعود أيضا إلى البناء الملحمي، و لكنه يشيده من مجموعات من الحكايات المنفصلة – أشبه ببناء الحكاية الشعبية حتى يتيح للرواية الملحمية التعبير عن تجاوب البشرية و مكابداتها الإجتماعية و الروحية و النفسية في مسيرتها الشاقة لتحقيق أحلام العدل و المساواة و الكرامة و المعرفة و الرخاء..) (50).

و في النهاية لو سألتموني عن محفوظ و عن القضايا الجوهرية في فكره ؟.. لقلت لكم : إن نجيب محفوظ الفائز بجائزة نوبل سنة

50- صحيفة (الأهرام الدولي بتاريخ 14 ديسمبر 2001 دراسة بعنوان : (نجيب محفوظ و إبداع أهل المحروسة) بقلم سامي خشبة.

1988 و القائل : ((إن الحرافيش يتطلعون إلى العدل و ينتظرونه ؛ هو و فدي حتى النخاع، و تعلق بوالديه(51) و بالأسرة.. و يرى أن الخيط الثقافي الوحيد في الأسرة هو (الدين) (52)

و محفوظ هو روائي و فنان شامخ، و فنه لا ينفصل عن فكره.

وهو مقاتل جريء من أجل تحقيق أفكاره، و قد أضاف إلى وجداننا و حياتنا الفكرية كنوزا سوف تذكرها الأجيال جيلا بعد جيل.

و من خلال عمله الأدبي فتح مجالات الجذب للرواية العربية، و أخلص في التعبير عن مشكليات و طموحات (الطبقة الوسطى)، كما أثارت لغته قوالب و رؤى جديدة ؛ حيث فتحت مجالات واسعة في عملية السرد لما قام ((بتأسيس فن الرواية إنطلاقا من تأصيلها الأدبي في أرض الواقع الإجتماعي..)) (53) و حلل مأساة الإنسان المعاصر، و أسهم في تجديد القصة القصيرة، و في المشهد الروائي جسد الموهبة، و العبقرية و الحضور المتجدد.

فبعد (أولاد حارتنا) عام 1959 كتب (اللص والكلاب) سنة 1960، و (ثرثرة فوق النيل) عام 1965، و (ميرامار) عام 1966.

و تبدو صورة نجيب محفوظ بعد هذا الترحال متألقة في زوايا التأصيل الفني ؛ حيث إستطاع أن يبرز أكثر من غيره ؛ لذلك إكتسب جمهورا واسعا من القراء في العالم على الرغم من أن عملية النقد لم

51- انظر (نجيب محفوظ.. يتذكر) : جمال الغيطاني ص 15.

52- المصدر نفسه ص 14.

53- انظر دراسة الناقد غالي شكري بعنوان : (نجيب محفوظ في مواجهة شاملة) : مجلة (الوطن العربي) ع 45 بتاريخ 1988/1/22.

تتجه إليه إلا بعد إنجاز القسم الأوفر من مرحلته الكلاسيكية و الفضل كل الفضل في ذلك يعود بعد إلى أنور المعداوي، ثم سيد قطب و يوسف الشاروني و جابر عصفور فيما بعد، و د. فاطمة موسى، و د. مصطفى عبد الغني.

و مهما تعددت الدراسات حول أدب نجيب محفوظ و سيرته الذاتية يبقى محفوظ خالدا كخلود (المرايا)، و (الشحاذ)، و (عبث الأقدار)، و (كفاح طيبة)، و (رادوبس) و ملحظا في الرؤيا الأدبية المشبعة بالفن الجميل... و من العظماء الكبار ؛ الذين عبروا عن نبض الشارع المصري و العربي، و أفسحوا للعنصر الفكري مجالا رحيبا.

و محفوظ كقامة أدبية و فكرية سوف يضل إهراما للرواية العربية في بنائها الفني، و في أساليبها السردية، و في توظيف (الزمان و المكان) للقفز بإشكالية الوعي من أجل فتح نوافذ و آفاق جديدة في شجرة الرواية العربية، و تعبيد مسالك التجريب.

" المقهـــى .."في حيـاة نجـــيب محفــوظ !..

كلما كان الحديث شائقا عـن الروائـي الكبـير نجيـب محفـوظ ؛ كلما يقودنـا الحديـث إلى معرفـة (أدب المقاهي) و (أدبـاء المقـاهي) ؛ و هذا بالطبع شيء محبّب، وهو جانب مثمـر و ثري في حيـاة الإنسـان، و يمثـل شـهادة حيـة في الرؤيا التاريخية و الإجتماعية، و فيمـا تزخـر بـه أوضاع الأدبـاء من صراعـات و نضـالات مـن أجـل تحقيـق الطموحـات وآكتساب تفاصيل الزمن، و إدراك مذاقات الأحداث الجارية.

- في مرفـــــأ الذاكــــرة :

و " المقـاهي في الحـارات.." و خصوصـا (مقـاهي الأدبـاء) ؛ شكلت تفاصيل الزمن، و الواقع التاريخي و الإجتماعي، و عبّأت وجدان النخـب بالحمـاس، و فيهـا نمـت حركـة التعبـير عـن الآراء في جلسـات موحية بالمتابعة التاريخية لما حدث و يحـدث مـن أسئلة الراهـن، و مـن أجل بناء الذات و دعم الحركات المتجهة إلى المستقبل.

و (أدبـاء المقـاهي) كـانت لهـم إضافـات في محـاور التحـرك الإجتماعي.. و من هؤلاء الكاتب القدير نجيب محفوظ ؛ الـذي برهـن بالموقف و القلم أكثر من مرة عـن ثوابتـه و لم يشأ أن يتخلـى عنها قط و هذا الكاتب الكبير في كـل رواياتـه و أقاصيصه طرح أكـثر من سـؤال حارق، و نبهنا في أعماله أنه يرفض الإقطـاع، و التبعيـة الإقتصاديـة، و لـه طموحات و أسئلة لو تعمقنا فيها ؛ فإننا نراه يؤكد على الانحياز للفقراء.

كمـا نـادى بالعدالـة الاجتماعيـة و جعلـها مـن أوليـات الحيـاة الكريمـة، و قيمـة و حركـة في سلوك الحتميـة الطبيعية لتحسين أوضـاع

الطبقة الوسطى، و (المقهى) كما لا يخفى كان له دور كبير في الحياة السياسية و الأدبية و الفنية في عالمنا العربي، و يكفي أن (المقهى) استقطب الأصلاء في تيارات الأدب. و، تخرج منه أجيال من الأدباء المهمشين ؛ و تأسس فيه روابط سياسية ,و ثقافية، ذات أهمية و حدثت فيه جدالات مفيدة أثمرت هذا الزاد المعرفي، كما كان شاهدا على مشاريع هامة في الفكر، و في العمل السياسي، و من ثم تحولت إلى كتب و مجلات و إصدارات مهمة أثرت مساراتنا السياسية و الفكرية.

كما رأينا من خلال المقاهي الأدبية كيف آنطلقت المظاهرات الوطنية ضد الحكم الأجنبي الجائر.

و كيف قامت حركات التصحيح لإصلاح نظم الحكم.

و المقاهي هي الأخرى عرفت بمشاهير الفنانين و الأدباء، و ربطت بين الأجيال، و حكت عن التاريخ و جاذبيته. و ظلت على الدوام رئة حقيقية تتنفس المجتمعات العربية عبرها هواء أيامها الجديدة.

- أجـــواء و أســـــرار :

و الأدباء حكوا كثيرا عـن أجواء المقاهي الأدبية في إبداعاتهم و قصصهم، و من هؤلاء الكاتب الكبير الأستاذ نجيب محفوظ، و جمال الغيطاني و عبد الرحمان الأبنودي و عبد العزيز شرف و محمد جبريل، و علي الدوعاجي و رشيد الذوادي، و ليلى العثمان، و الهادي العبيدي، و يحي محمد، و وديع فلسطين.. و الدكتور سمير سرحان.

و تجد في (المقاهي) أدباء تحدثوا عن الجلسات الحميمية فيها، و يرى بعضهم أن المقاهي إحتفظت بأجيال عديدة من الرواد :

- و بعض هؤلاء كانوا حريصين على العمل الجاد، و ماسكين بالمفاتيح الحقيقية للدخول إلى دنيا المصادر على صعوبتها.
- و البعض منهم ؛ كانوا أدباء و أساتذة كبارا، و مثلوا أجيالا من الثائرين أو المهمشين و لكل جيل رؤاه، و أعماله و آجتهاداته، و متطلبات حياته.
- و آخرون كانوا سياسيين و نقادا، و أغلبهم إحتفظ بذكريات حلوة عن (المكان)، و أثار قضايا و معارك تتصل بالتراث، و بالماضي و الراهن معا.

و عند آستعراض ما في (مرفأ الذكريات) ؛ نرى المقاهي الأدبية إنفردت بذكريات الحب و الشدو، و بأيام الشباب الوردية، و بعشرة الأجيال، و بطلبة الجامعات، و حتى بالمتمردين الثائرين. (54)

و في محكيات التاريخ تطلع على أسرار و قصص عجيبة عن مجالس أدبية إنعقدت في المقاهي... و رأينا نموذجا منها وصفه لنا الكاتب القدير أحمد حسن الزيات في مجلة (الرسالة) (55) و يقول هذا الكاتب و بعنوان :

- (في مخبأ الفيشاوي) :

((-جلست أنا و صديقي شاعر الجندول في قهوة (الفيشاوي) عشية يوم الأحد الماضي نحتسي أقداح الشاي العنبري الهنيء، بعد إفطار من طهو رمضان الدسم المريء ؛ و كان الظلام قد

54- انظر مجلة (العربي) ع 504 (نوفمبر 2000).

55- راجع مجلة (الرسالة) ع 28 (أكتوبر 1940)

هب يتموج لطيفا بين المصابيح الزرق كأنه ظلال الأجنحة الخفاقة في جو بنفسجي قاتم، و الحركات الهامدة و الأصوات الخاشعة قد أخذت تتخلص رويدا رويدا من فترة الصيام و سكرة الطعام، فهي تنتعش في البيوت، و تنتشر في الشوارع، و يقبل الناس على المقاهي فيلقون ثقل بطونهم على مقاعدها ليعالجوها بالأفاوية المنبهة و الأشربة الهاضمة.

و كان صديقي الشاعر قد طفق بعد شايه يكركر في شيشته الأعجمية و قد آنمحى من خياله السباح جندول البندقية و خمرة الرين و بحيرة كومو، فلم يعد يشعر إلا بعطر الشرق و سحر الشرق و نور الشرق، و تراءت له من خلال ما يجلوه ((الحي الحسيني)) على عينيه من مختلف الأجناس و الألوان و الصور بقايا الملك الإسلامي العظيم، و دلائل المجد العربي الخالد، فلم يتمالك أن قال في لهجة تنم على الأسى و الأسف :

- يا ضيعة الشعر و يا ضيعة الشاعر إذا لم يسجل هذا الملك في ديوان، و يخلد هذا المجد في ملحمة !

و كان شعوري في تلك اللحظة يجري مع شعوره من غير تنبيه و لا توجيه، فقلت له على الفور :

- لو أن شعراءنا في الماضي و الحاضر قد خلصوا كما خلصت أنت الساعة من أنانية الفكر و فردية الشعور ؛ لوجدوا في حضارتنا الزاخرة و تاريخنا الحافل أفانين عجيبة من الشعر القصصي ؛ توحد شتات الهوى و تكمل نقص الأدب ؛ و لكنهم كانوا و ما زالوا ينقلون عن ذاتية غالبة.

فالقصيدة عواطف الشاعر لا تكاد تخرج عن دخائل نفسه و مدارج حسه، و الأغنية لواعج المغني فلا تعبر عن المعاني العامة و لا تهتف بالأماني المشتركة. و لعل ملاحك التائه يرسيه القدر الهادي على

شطآن الشرق الجميلة فيقبس من شمسها نور إيمانه و أمانه، و يأخذ عن إلهامها سحر أوزانه و ألحانه !

* * *

غصت القهوة على عادتها في ليالي رمضان بالسامرين من كل لون و من كل طبقة، و كان القمر يضرب بأشعته الباردة الرخية في ضوء المصابيح الداخلية فيشعشعه و يقويه، و المذياع على جدار القهوة ينقل الأغاني المسئومة في فرقعة و صخب. و الجالسون يتجادلون في السياسة أو يتحدثون في الأدب، و الندل يذهبون و يجيئون و ألسنتهم لاتفتر عن ترديد هذه الجمل : " واحد كشرى مظبوط..فلوسك يا محمود.. أيوه حاضر... و لعه لمين؟... واحد ساده. مستوى زياده.."

و على حين فجأة سكت المذياع و آنطلقت صفارات الإنذار تردد نعيبها المتقطع، فأطفىء النور، و أخذت الناس زلزلة من الفزع، فنهضوا و تجمعوا و دخل بعضهم في بعض كما تتداخل خراف القطيع إذا دهمتها العاصفة، ثم تدافعوا متدفقين في داخل القهوة وهي قبو مظلم مسلوك تحت بيت ضخم من البيوت القديمة، و على جانبي هذا القبو حجرات ضيقة من غير أبواب للخلوة أو للعب. فدخلت أنا و صديقي إحداها فوجدنا فيها شيخا هادئا يكركر، و شابا مضطربا يثرثر، و آخرين قد ألجمهم الذعر فهم في وجوم ذاهل. ثم أنصت الناس و نظروا، فلم يسمعوا رعدا يقعقع. و لم يروا برقا يلعلع، فتساير عنهم الخوف، و تذكروا أن القدر لا مفر منه، و القضاء لا حيلة فيها، فأخذوا يتنادرون على الصفارات و الغارات، و يجددون ما أريق من الأكواب

و أطفيء من الشيشات. و المصري أربط الناس جأشا في الخطوب متى زايلته بوادر الجزع : لأن إذعانه لقضاء الله يكسر حدتها عنه، و أخذه المكاره بالمزاح يضعف أثرها فيه. وهو في ذلك كالإنجليزي، إلا أن ثبات المصري يرجع إلى حرارة يقينه، وثبات الإنجليزي يرجع إلى برودة طبعه : هذا يبلد ثم يجلد، و ذاك يتفرق ثم يتماسك.

*　　　*　　　*

ليت الذي صبغ وجوه المصابيح باللون الأزرق إستطاع أن يصبغ به وجه القمر ! لقد كان أجدادنا القرويون يقولون : "لم يبق من ليالي الهناء غير ليالي البدر" فهل يصح هذا القول إذا قلناه اليوم؟ إن بزوغ القمر أمسى نذيرا بالغارة، و دليلا للجارة إلى قتل الجارة. فمن يزعم الآن أن الليل لا يزال لباسا و أن الناس لا يزالون ناسا، فقد جهل أن العالم الحاضر يسوسه الشياطين، فهو يرتكس ليسقط. و ينتكس ليموت!

قال لي صاحبي و قد أعلنت الصفارة بصوتها المتصل زوال الغارة الأولى : قم بنا نتلمس الطريق إلى مكان آخر نتنفس فيه من كربة الحر و الحرب.

فقلت له و أنا أحبسه على كرسيه : هنا يا صديقي مخبأ هيأته لنا وقاية الله، فإذا تركناه وأدركتنا غارة أخرى فأين نختبئ؟ ليس في القاهرة و لا في غير القاهرة مخبأ حصين يعرفه الجالس في بيته أو السائر في طريقه. و لا أدري أي ضربا من ضروب الغفلة أطبق على مصلحة الوقاية المدنية فلم تقم بإنشاء المخابئ الصالحة على وضعها الصحيح !

هل أخذوا علـى الدهر عهدا بالأمان، أم حسبوا أن بضعة أخاديد في أمكنة متباعدة مجهولة تعصم سكان القاهرة وهم في المنازل أو في الطرق من شظايا القنابل؟.

ليس من صالح الرأي يا صديقي أن تجهز قصور السراة و دور الحكومة بالمخابئ المسلحة المريحة، ثم يقال للشعب المسكين تبرع بالقروش لنشق لك لحودا في ظاهرها الحمام المنقض، و في باطنها الزجام المهلك !.

فقال لي الشاعر وهو يتمكن في مجلسه : إن سياسة الملاح التائه لا تزال هي سياسة الحكومة في كل أمر. فاسأل الله وحده أن يجعل لهذه الأمة مرفأ في كل عاصفة و ملجأ من كل غارة !.)).

- في أدبيـــات المقـــاهي :

و في ثنايا الأيام طالعتنا قضايا... في (أدبيات المقاهي) و من هذه القضايا أنه أثيرت منذ الخمسينات مقولة تقول : (إن القاهرة تكتب، و بيروت تطبع، و بغداد تقرأ)، و وفق هذه المقولة أضيف شخصيا..فأقول إن القاهرة تكتب حتى في المقاهي و بالخصوص في المقاهي الشعبية ؛ التي تعج بالأدباء الشبان.

و في مطلع الستينات في مصر كان الإنتماء إلى مقهى بذاته علامة على آتجاهات الأديب ؛ فأدباء (متاتيا) عرفوا بآتجاههم التحرري الليبرالي، فيما إستقر الرأي لدى المصريين أن معظم أدباء (مقهى ريش) و (مقهى إيزافتش) يساريوا النزعة و مجددون و ثوريون.

و في هذا الصدد يرى الناقد وليد طوغان أن العوامل الإقتصادية و ما تبعها من خلل في البنية الإجتماعية ؛ أثرت كل التأثير على (أدب المقاهي)، و من هنا وجب إعادة النظر في دراسة (أدب

المقاهي) بتياراته و أشكاله المختلفة.. و يرى الناقد نفسه في (أدب المقاهي) : أنه مثل نوعية و ثورة في الشأن العام ؛ و لذا كان من الخطأ مصادرة أي لون فيه. (56)

و من رأيه أيضا أن (أدب المقاهي) : مثل حصيلة من التجارب، و أن القائمين بالعملية الإبداعية فيه شكلوا مجتمعا جديدا من الأدباء و أنتجوا أدبا تحفزه الهزات الإقتصادية و الإجتماعية. (57)

- نجيب محفوظ... و (المقاهي) :

و الذكريات عن المقاهي ظلت ذكريات شائقة و غالية لدى الكاتب الكبير نجيب محفوظ ؛ و مجالس المقاهي أصبحت لا تنسى و لا تنتهي في فكره ؛ فهي ترتبط بالأصدقاء والأسرار، و بأيام الشباب و هي من أحلى أيام العمر (58).

و (المقهى) كما يقول محفوظ : ((لعب دورا كبيرا في رواياتي، و قبل ذلك في حياتنا كلنا. لم يكن هناك نوادي، المقهى هو محور الصداقة)) (59)

و نجيب محفوظ ؛ الذي تردد على العديد من المقاهي في بواكير شبابه و في شيخوخته أيضا ؛ إلتقط الكثير من شخصيات رواياته من المقاهي، و بدا لنا هذا الجهد على وجه الخصوص في (الثلاثية)، و (الكرنك)، و (ثرثرة فوق النيل)، و في (زقاق المدق) أيضا ؛

56- انظر صحيفة (الحياة) اللندنية بتاريخ 2002/12/12 م

57- المصدر نفسه

58- (نجيب محفوظ.. يتذكر) جمال الغيطاني ص 90.

59- (نجيب محفوظ.. يتذكر) ص 88.

و قد استهل هذه الرواية بقوله : ((تنطق شواهد كثيرة بأن (زقاق المدق) كان من تحف العهود الغابرة، و إنه تألق يوما في تاريخ القاهرة المعزية كالكوكب الدرّي.أي قاهرة أعني؟.. الفاطمية؟.. المماليك؟ السلاطين؟ علم ذلك عند الله و عند علماء الآثار، و لكنه على أية حال أثر، و أثر نفيس.. كيف لا و طريقه المبلط بصفائح الحجارة ينحدر مباشرة إلى (الصنادقية)، تلك العطفة التاريخية؟.. و (قهوته) المعروفة بـ (قهوة كرشة) تزدان جدرانها بتهاويل الأرابيسك، هذا إلى قدم باد، و تهدم و تخلخل، و روائح قوية من طب الزمان القديم الذي صار مع مرور الزمن عطارة اليوم و الغد...!" (60)

و في نصوص محفوظ الروائية و القصصية نجد إشارات واضحة عن المقاهي.. و عن الفتوات و الخناقات فيها كما هو باد لنا في (بداية و نهاية) و (قصر الشوق)، و في (زقاق المدق):

و نصوص محفوظ الروائية و القصصية مليئة هي أيضا الأقاصيص الشائقة عن (عالم المقاهي) و جلسات الأدباء فيها، و نرى فيها حتى عن أدق التفاصيل في المفارقات العبثية، و عن الحياة ؛ التي تحركها المشاعر ؛ و حتى الطموحات و أسئلة الأحفاد و الأجيال، و فيها نرى أصوات التضادد الموحية برعاية الأمل و آستمرار الحياة..

هي كلها في تقديري ؛ لوحات تعبر عن المنجز، و مكتفية بذاتها؛ و لكنها ترفض الركود و العقم ؛ و تحنّ إلى ملامح الزمن القادم، و تشير إلى بوابات المستقبل.

60- راجع (زقاق المدق) : نجيب محفوظ ط / بيروت (1972) ص5.

و نصوص محفوظ هي الأخرى ؛ ترى فيها مشاهد حية عن (الفتوات) و الخناقات في المقاهي، و حكايات عن (عالم الهامش) الضيق و ما يحدث فيه من صراعات مقطوعة الصلة بالتاريخ ؛ و محكوما عليها بالسطحية و الفناء.

و نحن حينما نعود إلى رواية (الكرنك) لمحفوظ ؛ و (الكرنك) كما هو معلوم آسم لـ (مقهى) و تديره في الأربعينات (قرنفلة) ؛ وهي راقصة في (شارع عماد الدين بالقاهرة) ؛ ففي هذه الرواية نرى محفوظ يقدم لنا أدق التفاصيل عن (مقهى الكرنك) و عمن يجلس فيه من الشبان، و يقول : كان أبرز من تردد على (الكرنك) و على قرنفلة بالذات؛ مجموعة من الشبان، و لكنه في نفس الوقت يقدم لنا الأجواء السياسية السائدة وقتئذ. و يقدم لنا – و ضمن ما دار في الخط الدرامي – فترة من تاريخ مصر كان البوليس الخفي هو الحاكم أو هو الشبح الذي تخاف بطشه العيون و تحرس خوفا منه الألسنة.

و الرواية يطغى عليها طابع الحوار و أسلوبها تلونه الإعترافات بطابعها المميز حسب رأي الناقد حسني سيد لبيب في دراسته عن (الكرنك) في العدد العاشر من (مجلة الضاد) السورية بتاريخ تشرين الأول عام 1977م.

و تقدم (الثلاثية) حركة تاريخ الشعب المصري في العقود الأربعة الأولى من القرن العشرين و تحديدا بين خريفي : (1917 و 1944م) و العاصفة التي حركت الأحداث.

و في (محكيات المقهى) في (بين القصرين) ؛ كشف محفوظ عن مذابح الحرب العالمية الأولى. و وصف لنا موجة النضال الشعبي،

و في (مجلس القهوة) أيضا، و في مشهد حواري طويل ؛ تساءل بصراحة : و ماذا يصنع سعد زغلول حيال دولة تعد سيدة العالم.

و الجواب كان فيما رصدته أبعاد الرواية حيث حصلت هزة مفاجئة في السكون و الخمود . فكان يوم 13 نوفمبر 1918 يوم المجاهد، و رواية محفوظ رصدت وقائع عيد الجهاد ؛ الذي شارك فيه الشاب (كمال) و تقف (السكرية) لتشهد أن كمال شهد إحتفالية العيد الثامن بعدما أصبح مثقفا عامر الرأس بالأسئلة. (61)

و أحاديث مقهى (زقاق المدق) و أجواؤه و أسراره يرصدها نجيب محفوظ في روايته بدقة و شاعرية حيث يقول عن (المعلم كرشة الذي صاح في وجه الشاعر :

- ((رأسي صاح يا مخرّف، و أنا أعلم ما أريد، أتحسب إني آذن لك بالإنشاد في قهوتي إذا ما سلقتني بلسانك القذر؟)) (62)

و هنا خفف الشاعر من لهجته و راح يقول : "هذه قهوتي" أيضا.. ألست شاعرها لعشرين عاما خلون؟ !)) (63)

61- راجع (نجيب محفوظ بين القصة القصيرة و الرواية الملحمية) : ابراهيم فتحي ط مصر 2002 ص 199.

62- زقاق المدق : نجيب محفوظ ص 8.

63- المصدر نفسه ص 9.

و اصداء المكان ؛ إستوحى منه الكاتب الكثير من الأسرار : أسرار الإنحرافات، و كشف المشاعر و الأحزان، و آنتعاش الصراعات، و نمو المواقف المتناقضة و كلها جاءت في شاعرية حارة و ترصد حركة هذا الإنتماء الإجتماعي العجيب للمقهى.. كتب نجيب محفوظ في (زقاق المدق) يقول : ((ساد الظلام الزقاق إلا ما ينبعث من مصابيح القهوة فيرسم على رقعة من الأرض مربعا من نور تتكسر بعض اضلاعه على جدار الوكالة. و مضت الأنوار الباهتة وراء خصاص نوافذ البيتين تنطفئ واحدا في اثر واحد، و أكب سمار القهوة على الدومينو و الكومي، إلا الشيخ درويش فقد أغرق في ذهوله، و عم كامل مال رأسه على ثدييه و راح في سبات. و ظل ((سنقر)) على نشاطه. يحمل الطلبات و يرمي بالماركات في الصندوق، و المعلم "كرشة" يتابعه بعينين ثقيلتين وهو يستشعر في خمول ذوبان الفص في جوفه و يستنيم إلى سلطنة لذيذة. و تقدمت جحافل الليل، فغادر السيد رضوان الحسيني القهوة إلى بيته. و تبعه بعد قليل الدكتور بوشي إلى شقته في الدور الأول من البيت الثاني، ثم لحق بهما الحلو و عم كامل.

و أخذت المقاعد تخلو تباعا، حتى آنتصف الليل فلم يبق بالقهوة إلا ثلاثة : المعلم و الصبي و الشيخ درويش. و جاء نفر من المعلمين أقران المعلم "كرشة" و صعدوا جميعا إلى حجرة خشبية على سطح بيت السيد رضوان، و تحلقوا المجمرة. و بدؤوا سهرة جديدة لا تنتهي حتى يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر. و خاطب سنقر الشيخ درويش قائلا برقة :

- انتصف الليل يا شيخ درويش..

فآنتبه الشيخ إلى صوته. و خلع نظارته بهدوء و جلاها بطرف جلبابه. ثم لبسها من جديد و سوى رباط رقبته. و نهض قائما واضعا قدميه في القبقاب و غادر القهوة دون أن ينبس بكلمة، يخرق السكون بضربات قبقابه على بلاط الزقاق. كان السكون شاملا، و الظلمة ثقيلة، و الطرق و الدروب خالية مقفرة. فترك لقدميه مقوده، حيث لا دار له و لا غاية، و غاب في الظلمة)). (64)

و هكذا رأينا (المقهى في حياة نجيب محفوظ) يأخذ حيزا مهما من حياته و في مشواره الأدبي، و التقط منه الكاتب الكثير من شخصيات رواياته.

و (النص المحفوظي) بوجه عام مليء بأسرار المقاهي و خفاياها و بأحاديثها و مجالسها.

و (المقاهي) عامة و بالنسبة إلى نجيب محفوظ : ظلت هي المكان المفضل ؛ سواء في أيام شبابه أو في شيخوخته، و تحظى بأفضلية داخل أعماله الروائية و القصصية ؛ بل قل إن أهميتها تعدّت رواياته : لتصبح ذكريات لا يطويها النسيان ؛ و طريقا لتواصل الحياة عبر المخاض الفكري و المساءلة الدائمة و التأملات في جوهر الأشياء و الحقائق) الإجتماعية الناصعة.

و عن أهمية (المقهى) و دوره في حياته سئل نجيب محفوظ سنة 1979 من طرف الكاتب الصديق محمد سلماوي و أجابه بقوله : ((هي المكان الذي كنت ألتقي فيه بأصدقائي الخصوصيين، وهي بعد ذلك مكان التقاء المثقفين و الأدباء بعد أن اشتغلت بالأدب، هي أيضا

64- زقاق المدق : نجيب محفوظ ص 13 و ما بعدها.

المكان الذي قد أجلس فيه وحدي لأتأمل من يمرون في الشارع أمامي، وهي في بعض الأحيان المكان الذي كنت أرتاده ؛ لكي أدخن الشيشة التي لا أستطيع تدخينها بالمنزل، و قد كان بإمكاني أن أمكث مع الشيشة يوما بأكمله.

ففي الحالة الأولى كان رفيقي في القهوة هم الأصدقاء و في الحالة الثانية كان الأدباء، و في الحالة الثالثة كان المارة في الشارع، و في الحالة الرابعة كانت الشيشة، و في بعض الأحيان كانوا يجتمعون جميعا في جلسة واحدة.

و لقد تنقلت خلال حياتي في الكثير من القهاوي : ففي سنوات الدراسة الأولى كنت أجلس مع والدي على قهوة " الكلوب المصري"، حيث كان يجالس أصدقاءه و كان يحضر لي " لكوم" أو "جيلاتي".

و حين بدأت بعد ذلك إرتياد القهاوي أثناء الدراسة الثانوية ذهبت مع أصدقائي إلى قهوة قشتمر، و كنا ننتقل بينها و بين قهوة مقابلة لها اسمها ايزيس لم تعد موجودة الآن، ثم تجرأنا بعد ذلك و جلسنا في قهوة عرابي التي كان يرتادها الكثير من الأكابر في ذلك العصر، ثم نزلنا بعد ذلك إلى سيدنا الحسين فكانت قهوة الفيشاوي ثم في النهاية تلك القهوة التي أسموها باسمي، و قد كانت في الأصل خرابة تابعة لهيئة الآثار و حولها أحد المهندسين بعد حصولي على جائزة نوبل إلى تلك القهوة الأنيقة الموجودة الآن.)) (65)

65- صحيفة (الأهرام) القاهرية بتاريخ 1997/12/11.

مقاهي نجيب محفوظ في القـاهرة !..

- نجيب محفوظ ...نهر يتدفق دائما بالجديد :

الكـاتب الكبير نجيب محفـوظ يعد من النمـاذج الفريـدة في عالم الكتابة، وهو من الشخصيات الأدبيـة القليلة الـتي رسمـت الملامـح الكبرى للبيئة الإجتماعية في عصره.

و نجيب محفـوظ في مسيرته الأدبيـة كـان سـباقا في آكتشـاف دلالات الترابط العضوي بين الإبداع و الواقـع الشعبي و مـا يتفرع عنه من توازِ، و تقابل، و تقاطع في فصـول الحيـاة، و فيمـا يجـري علـى أرض الواقع من حوارات تستوعب مراحل العمر.

و مـا أعظـم المعادلـة الإجتماعيـة و السياسـية في الحـارة كمـا عشـناها في روايـات هـذا المبـدع الأصيـل كـ : (القـاهرة الجديـدة)، و (السكرية)، و (أولاد حارتنا)، و (خان الخليلي) !..

و ما أروع مضامين مجموعات قصصه الذائعة الصيت كـ : (همس الجنون) و صدرت عام 1938، و (دنيا الله) و نشرت سنة 1963، و (بيت سيء السمعة) و صدرت سنة 1970 م !..

و إننا حينما نتابع نتاجات محفوظ و ندقق في هذا التآلف بـين صورة العمل و مضمونه ؛ نرى شكلا من أشكال العبقريـة الباهرة، و نـرى محفـوظ الكـاتب الكبـير، و العاشـق للكلمـة المسؤولة، و المعـبر عمـن يعيشون في قاع المجتمع ؛ و الحق فإن هذا الكـاتب وفـق كـل التوفيق في كـل سياقاته الفكريـة ؛ حيث شـاهدناه يتـابع الشـأن العـام و يلقـي بأسئلته الحارقة في منعطفات هذه المتابعة المستمرة.

- محفوظ... (العـــــاشق للمقاهي) :

و من واقـع التجربـة المباشـرة، و مـن قـاهرة الأحيـاء بتكايـا المتصوفة و شيوخ الحارات و فتواتها ؛ إستمد محفوظ شـخصياته و رؤيته الإجتماعيـة، و حقـق أرقـى مسـتوى الجـودة في نصوصـه و خصوصـا في (السـمان و الخريـف)، و (اللـص و الكـلاب)، و (الشـحاذ)، و (ميرامـارا)، و (خان الخليلي) و سواها من الأعمال الخالدة.

و في المشـهد الإبداعـي ؛ كثيرا ما شهدناه مسـتوعبا للأحـداث الإنسـانية، و ذا رؤيـة إجتماعيـة تنبـع مـن ذاتــه، و مـن قراءاتـه للواقـع المعيش، و من الخبرة المتبادلة و من صور التشابك الحيّ بين التواصل و التضاد.

و (المقهى) بالنسـبة إلى هـذا الكـاتب القديـر : لم يكـن مكانـا للتسلية أو للمسـامرة و المرح فحسـب ؛ بـل مثـل (المقهى) بالنسـبة إليــه (المركـز) و (أعمـاق الحيـاة الشـعبية).. و بالتـالي إتخـذه الكـاتب كخلفيـة كاملة ؛ ليسـتمد منـه الترحـال مـع شـخصياته الروائيـة و نماذجـه الشـعبية، و منظومـة قيمـه و حتـى المعايـير العامـة لبنيــة الأفكـار و السـلوك في المجتمع.

و في (مقاهي القاهرة) إلتقـط محفـوظ مـا سـاعده علـى تكويـن عالمه الروائي و القصصي.

و على رصيـف مقاهيه بالقـاهرة مرت بذهنـه أسئلة و حكايـات و أطياف ؛ وهو ينفث دخان سيجارته.

و أبدع محفوظ في نقل تل الصور الحيـة إلى قصص و روايـات متوهجـة بـالفن، و متمـيزة بمتعـة الأصالـة، و تقـود إلى فـهم عميـق للشخوص، و فهم صور الحياة و ثقافة الناس و سـلوكياتهم، و من المعلـوم

أن اندماج محفوظ في المقاهي : لم يكـن بـالمرة كآندماج (جان بـول سـارتر) في مقـاهي بـاريس، أو آندمـاج توفيـق الحكيـم في رؤيتـه الإجتماعية و في تجليات الرؤيا عبر الزمان و المكان.

ف (محفوظ) آبن بلد أصيل، وهو أحد عشاق الحـارات القديمة، و آنتماؤه للمقاهي؛ كان آنتماء محبة و تعاطف و ودّ، و مـن أجـل التعبير عن الثوابت المعرفية لتحقيق أشواق العدل و الحق.

و (المقهى) ظل كائنـا حيا في حياته و أدبـه، و مـن خلالـه كـان يرصد مـا يجـري في الواقع، و يقدم نمـاذج مـن سـكان القـاهرة و وفـق محفـوظ، في تصـوير تلـك المشـاهد رأينـا الكثير منـها مـاثلا أمامنـا كـل التوفيق، و في ذروة آكتمالها في سياقات الصراعات و في مظاهر الحركة الإجتماعية العريضة.

و من هنا في تقديري تبرز عظمة نجيب محفوظ ككاتب متميز، و تـبرز أبعـاد رؤاه و قدرتـه الفائقـة في تدويـن التداخـل و في نقـل الأحداث، و يظل نصه المقروء هو الأصل و الصورة، فيمـا يلـوح به أفـق الكاتب من تأويلات و فيما يعبر عن نموذج التحدي النـاجح لمشكليات اللغة السلسـة المجسدة للتفـاعل في الحواريـة الكامنـة بـين الكائنـات و موضع المساءلة.

و ينفـرد محفوظ – و لعله الوحيـد مـن الكتـاب – ببراعتـه في تصوير مناخ (المقاهي)، و نقل الحـوارات العميقيـة لمـا يجـري في عالها ؛ سواء بين المثقفين أو غيرهم ..

– في زقـــــاق المــــــــدق :

و في رواية (زقـاق المـدق) لمحفـوظ مثـلا ؛ تـرى فصـولا مـن مسالك التوازي.. و تـرى صـورا من التنـاقض الإجتمـاعي و وجوهـا من

المتسلقين و يتبع هذا إيقاعات ثابتة توزع المعاني و الدلالات بشكل يجعلك تتفهم خصائص الرواية، و ما توحي به من قسمات خاصة بكل شخصية...و يقول محفوظ و في بداية أحد فصول الرواية : ((جاء (سنقر) بالقهوة للشاعر، كما أمر الدكتور فتناول الرجل القدح و أدناه من فمه وهو ينفخ ليطرد حرارته، و راح يرشف منه رشفات متتابعات حتى أتى عليه، ثم نحاه جانبا. و ذكر عند ذاك فحسب سوء سلوك صبي القهوة معه، فحدجه بنظرة شزراء و تمتم ساخطا.

- قليــــــــــــــل الأدب :

ثم تناول (الربابة) يجرب أوتارها، متحاميا نظرات الغضب التي أطلقها عليه (سنقر)، و راح يعزف مطلعها.

لبثت (قهوة كرشة) تسمعه كل مساء عشرين عاما أو يزيد من حياتها، و أخذ جسمه المهزول يهتز مع الربابة، ثم تنحنح و بصق و بسمل، ثم صاح بصوته الغليظ :

أول ما نبدي اليوم نصلّي على آلنبي.

نبي عربي صفوة ولد عدنان.

يقول أبوسعدة الزناتي...

و قاطعه صوت أجش دخل صاحبه القهوة عند ذلك يقول :

- هـــــــس !.. و لا كلمـــــــــــة أخرى..

فرفع بصره الذابل عن الربابة فرأى (المعلم كرشه)، بجسمه الطويل النحيل، و وجهه الضارب للسواد، و عينيه المظلمتين النائمتين، فنظر إليه واجما.. و تردد قليلا كأنه لا يصدق ما سمعت أذناه، و أراد أن يتجاهل شره، فآستدرك منشدا :

يقول أبو سعدة الزناتي...

و لكن المعلم صاح به مغيضا محنقا :

- بالقوة تنشد ؟! .. آنتهى .. إنتهى)) (66)

- النـــــــرجيلة كأفضل صديـــــــــــــــق :

و إذا ما قلنا عن نجيب محفوظ إنه ولوع بالمقاهي، و علاقاته بها قديمة جدا، و تعود إلى أيام بواكير شبابه ؛ حيث كان يتردد على مقاهي (الحسين، و الجمالية، و الغورية) ؛ و خصوصا بعدما أصبح مغضوبا عليه من طرف وزارة حزب الوفد (67).. قلت في تلك المرحلة بالذات؛ كثر تردده على المقاهي و بدأ يختلي بصديقه الصامت وهو (النرجيلة).

و تمر الأيام كالبرق الخاطف، و تستبدل وزارة حزب الوفد بوزارة أخرى.. و ترى هذه الوزارة أن تنقل محفوظ إلى (قبة الغوري) ؛ لينخرط ضمن موظفي (صندوق الدين).

و في الوظيفة الجديدة ؛ إكتشف الروائي الكبير منابع الناس، و تعامل معهم كآبن بلد أصيل. و لفت نظره في هذه المرحلة نفائس (مكتبة قبة الغوري)، كما تعود أن يختلس بعض اللحظات ليمضي إلى (المقهى)، و ليصاحب (النرجيلة) كأفضل صديق يؤنس وحدته.

66- زقاق المدق : نجيب محفوظ ص 8.

67- يروي محفوظ في كتاب (نجيب محفوظ.. يتذكر) أنه حينما عمل بالأوقاف نصحه كامل كيلاني بأن يخفي هويته كمؤلف، لأنه قاسى كثيرا لما يكرم بين طرف بعض الوزراء ؛ حيث تقوم ضجة الحساد بسبب هذا التكريم : آنظر ص 105 من هذا الكتاب.

و التزم محفوظ بالحفاظ على هذا الصديق : بل ووصفه في جلساته الأدبية بـ : (الصديق الصامت)، و في متواليات الأيام لم يشأ أن يتخلى عنه إلا في بداية الستينات : حيث أبدله فيه بالسجائر.

و هكذا آحتفت الأيام بمحفوظ العاشق للمقاهي. و بجلسات هذا الأديب مع أصدقائه ؛ سيما و قد تردّد على مقاهي عديدة بمدينة القاهرة، و لعل من أهم هذه المقاهي :

* (مقهـــى الأوبـــرا) :

و شكل (مقهى الأوبرا) لمحفوظ هذا العالم العجيب في الأربعينات و الخمسينات فهو مقهى أروبي الطابع و ذو طوابق ثلاثة و يمكن أن ترى فيه حتى النساء يجلسن لتدخين (النرجيلة)، و في طابقه الثاني يوجد ملهى ليلي بآسم : (صفية حلمي) ؛ التي عملت مع الراقصة بديعة مصابني.

و آعتاد نجيب محفوظ – و منذ عام 1945 – أن يجتمع في هذا المقهى برواده و بالأدباء في صبيحة كل يوم جمعة بداية من العاشرة صباحا و حتى الواحدة ظهرا، و لم تنقطع جلساته الأسبوعية إلا عام 1962 بعد أن أصبحت مراقبة من طرف رجال الأمن.

و يرى الكاتب جمال الغيطاني أن جلسات محفوظ كانت ممتعة، و ضمت أجيالا من الأدباء... و يقول عنها : ((و يبدو أن إدارة المقهى كانت ترحب بندوة محفوظ الأسبوعية ؛ فكانت الموائد تضم إلى بعضها بشكل طولي، و ينتظم حولها الأدباء و المريدون بينما يتصدر محفوظ الجلسة إذا كان الجميع يتحلقون حوله.)) (68)

68- انظر (أخبار الأدب) ع 2 ديسمبر 2001 مقال لجمال الغيطاني.

و جلسات محفوظ في (الأوبرا)؛ تعوّد أن يحضرها جماعات من طلبة الجامعات، و أدباء كبارا مثل : عبد الحميد جودت السحار، و د. محمد عبد المنعم خفاجي، و ثروت أباظة، و أحمد علي باكثير، و صبري موسى، و أحمد نوح، و جمال الغيطاني، و إبراهيم منصور، و محمد البساطي، و إبراهيم أصلان، و مجدي طوبيا، و غالي شكري، و صبري حافظ، و سعيد الكفراوي.

و جمال الغيطاني يرى في معرض حديثه عن جيل الستينات أن جلسات نجيب محفوظ الأدبية بلورت ملامح هذا الجيل (69) و يقول أيضا : و كلما خرجنا من (ندوة الأوبرا)؛ إلا و اتجهنا للجلوس بأحد المقاهي بالقرب من سور الأزبكية. (70) لنتناقش من جديد و نتبادل الآراء.

و في (ندوة محفوظ) بـ : (الأوبرا) تم تعارف العديد من الأدباء و بالخصوص أدباء الستينات ... و عن أول لقاء تمّ بين جمال الغيطاني و محمد البساطي يقول الغيطاني : ((أذكر مقابلتي الأولى لمحمد البساطي، كان قد أنهى خدمته العسكرية للتوّ، بالأمس، و عند خروجه إلى الحياة المدنية قصد ندوة نجيب محفوظ، لولا تلك الندوة لأمضينا عدة أعوام حتى يتم لقاؤنا، أعني أدباء الستينات، و لذلك أعتبرها من التجمعات الادبية الهامة التي لعبت دورا في تقارب و تفاعل أبناء هذا الجيل، و عندما أقول (ندوة محفوظ)؛ فإنني لا اقصد هذا المكان

69- راجع (مجلة فصول) عدد 3 (شتاء 1997) ص 333 و ما بعدها.

70- المصدر نفسه و نفس الصفحة.

الذي جلست إليه فيه لأول مرّة ؛ إذ إنتقلت الندوة بعد إيقافها عام 1962 إلى عدة أماكن أخرى ...)) (71)

و يرصد نعمان عاشور ما شاهده في (ندوة الأوبرا) فيقول :

((و لا توجد ساعة يمكنك رؤيتها و أنت جالس في (كازينو أوبرا) ؛ فإذا وجدت الأستاذ نجيب محفوظ جالسا فآعلم أنك في الساعة الحادية عشرة، و إذا وجدت أيضا عبد الحميد جودة السحار فالساعة الحادية عشرة و الربع، فإن كان معهم الأستاذ علي أحمد باكثير ؛ فإنها الحادية عشرة و النصف، و في الساعة الثانية عشرة تماما يصل الأستاذ عادل كامل ثم يتزايدون بسرعة..

و هذه الندوة تفتح دائما في صباح كل يوم جمعة، و لا تدوم أكثر من ساعتين و نصف؛ و لهذا لا ينقطع بين أعضائها النقاش ؛ و لا ينصرف أحد من حضورها إلى لعب أو شراب ؛ كل منهم حريص على الإستمتاع و الجدل حرصه على الحضور في كل اسبوع.

و الأستاذ نجيب محفوظ لا يتكلم إلا عن شخصيات قصصه و حوادثها، فإذا سألته عن شيء أجابك في إسهاب لا يخاف أن يكشف لك " سر الصنعة" لأنه لا يخاف على " الصنعة" من أي تقليد، و تلك حقيقة يدركها الجالسون جميعا. و لكن ما الذي افاده منها نجيب محفوظ؟ تستطيع أن تسأل ناشر قصصه الأستاذ السحار.

فالسحار نفسه يؤلف قصصا و ينشرها بنفسه و لا يفيد منها شيئا. أما نجيب محفوظ فيرد على سؤالك بضحكة..

إنه يفكر في قراء الأجيال المقبلة.

71- جمال الغيطاني (أخبار الادب) ع 2 ديسمبر 2001.

و ينظر الأستاذ عادل كامل إلى المأساة من ناحية أخرى ؛ فهو منذ كتب "مليم الأكبر" لم يكتب شيئا. فقد عكف على المحاماة و آنقطعت صلته بالأدب. ذلك أن حياتنا في ماديتها الراهنة لم تعد تتسع للأدب و الفن.

و تعجب لهذا القول الذي يصدر منه؟ فإذا ناقشته بالتفصيل أدركت أنه يبحث عمن يؤيد موقفه، ليقنع نفسه بأنه ليس وحده الذي يعاني من تلك المحنة الضخمة التي تحرم الفنان من فنه و نزهده فيه.

أما الأستاذ باكثير فهو مجادل لا يباري. وهو ينتصر بابتسامته أكثر مما ينتصر بمنطقه. و أحب الموضوعات إليه " تأثير العقيدة الإسلامية على مسرحياته و قصصه".

و باكثير ينتج بكثرة ؛ لذلك كانت " سحنته" معروفة للقراء. سألني صديق يعرفه يوما عن جنسيته فقلت له إنه من "اسلامستان !". و مازال صديقي يبحث عن دولة بهذا الاسم.

و تنتهي الندوة بحديث عن الزواج. الأستاذ السحار يهاجم نجيب محفوظ لأنه لا يتزوج. و محفوظ يحاول الاستنجاد بالعزاب من الجالسين.. و باكثير يقول إن الزواج – من ناحية العقيد الإسلامية – نصف الدين !..)) (72)

و حينما توقفت (ندوة الأوبرا) عام 1962م ؛ استأنف محفوظ مجلسه الأدبي – و لأسابيع قليلة – في (نادي القصة) بالقاهرة قبل أن ينتقل إلى (مقهى سفنكس) (73)

72– انظر مجلة (فصول) القاهرية ع (فيفري 1951م).

73– راجع مقال (نقاهي نجيب محفوظ) : جمال الغيطاني (فصول) ص 333 و ما بعدها.

* (مقهـــى سفنكس) :

و يقع هذا المقهى أمام (دار سينما راديو)، و تحديدا أمام (ممـر الشاي الهندي) بين شارعي طلعت حرب و قصر النيل.

و من المعلـوم أن (مقـهى سـفنكس) ؛ يعد مـن أهـم مقـاهي القاهرة في الستينات، و ظل منذ البداية من أملاك اليونانيين، حيث كان المالك الأول له هو اليوناني (خرورأمبس)، و تعود الناس أن يلقبوه بصاحب المقاهي العشر... و بالفعل كان (خروأمبس) يملك عشرة مقاه شهيرة منها : (الشمس)، و (عماد الدين)، و (سفنكس).

و إثر ثـورة 23 يوليـو 1952 تم بيـع (المقـهى) مـن أصحابـه اليونانيين و آشتراه (عم حسني).

و شهد (مقهى سفنكس) في أعوام : (1962 و 1963 و 1964) مجلسا أدبيا لنجيب محفوظ ؛ حيث آعتاد هـذا الأديـب الكبير أن يـأتي إليه كـل صباح و يجلس علـى (الترابيزة) الأولى بالممر الخـارجي في آنتظار فتح (المقهى).

و في هذا المقهى تعوّد نجيب محفوظ أن يدخن شيشته و يقرأ صحفه و يقتبل زواره بعد قدومه من بيته بشارع النيل بالعجوزة.

و يذكر صاحب المحل الذي آشتراه من (عـم حـسني)، و حوله حاليا إلى دكان لبيع الأحذية ؛ أن عـادل إمام، و أحمـد رامـي و أحمـد عبد المجيد و جمال الغيطاني، و أحمد مظهر، و صنع الله إبراهيم كثيـرا ما شاهدناهم في مجالس محفوظ بهذا (المقهى) (74)

74- انظر مقال (عالم محفوظ السحري يزول من القاهرة) لمنور عز الديـن (أخبار الأدب) ع 2 ديسمبر 2001 ص 11 و ما بعدها.

و واظب محفوظ على حضوره بـ (مقهى سفنكس) كل يوم . و لم يتخلف عنه إلا في أيام الأعياد و الإجازات إلى أن صدر قرار في السبعينات من السيد (سعد زايد) محافظ القاهرة يقضي بغلق بعض مقاهي القاهرة و منها (قهوة سطوحي) بباب الحديد، و (مقهى سفنكس) في (وسط البلد).

و ما أن تم إغلاق المقهى تماما في سنة 1978 ؛ حتى آنتقل الكاتب الكبير نجيب محفوظ إلى مقهى ثان و يعرف بـ (مقهى ريش) الكائن بشارع طلعت حرب بالقاهرة.

* (مقهى ريش) :

و (مقهى ريش) الذي آحتضن (ندوة محفوظ) من جديد افتتح عام 1863م و عايش أجيالا من الأدباء، و آحتفظ بذكريات تاريخية عديدة ، كما حكى عن جماعات أصرت على المقاومة، و أبدعت فيما يعود على ذاكرة الأجيال و مستقبلهم و فيما يرسم لطرائق النهوض بمصر و بالأمة العربية.

و إذا ما عدنا إلى محفل الذكريات ؛ نجد في هذا المحفل أن (مقهى ريش) أقيم على أرض قصر الأمير محمد توفيق قبل أن ينتقل إلى قصره الجديد في (المنيل) و الكاتب عادل حمودة الذي كتب عن (ذاكرة ريش) : في صحيفة (صوت الأمة) (75) معلومات ضافية عن (ريش) و مما قاله عن قصر توفيق :

((كان القصر القديم حسب حجة الأملاك : سراية مركبة من "بدروم و دورين علويين" داخل جنينة و بها سلاملك و عربخانة

75- صحيفة (صوت الأمة) المصرية بتاريخ 2002/11/25

و إسطنبل، و كانت العوائد المقررة 35 جنيها سنويا، و بعد هدم القصر بنيت على أرضه العمارة القائمة فوق المقهى في عام 1908.. و قد بنت العمارة عائلة يهودية تسمى عائلة (عادا).. أما الشركة التي تولت بيع الأرض : فكانت (الشركة العقارية المتحدة) و كان يرأسها حضرة صاحب السعادة باغوص باشانوبار، و كان معه فريق كامل من علية القوم في ذلك الزمان...)) (76)

و يذكر المؤرخون أن أول من أسس (مقهى ريش) هو رجل أعمال نمساوي و يدعى (بيرنارد ستينبرج) و ذلك بتاريخ أكتوبر 1914م. ثم آشتراه منه (هنري ريسن) من رجال الأعمال الفرنسيين وهو الذي أطلق على المقهى آسم (ريش).. و بمرور الأيام و بعدما تعددت ملكية المقهى بين رجال الأعمال الأجانب إشتري (المقهى) من طرف عبد المالك خليل لكن اثر وفاته صار المقهى من أملاك إبنه مجدي. و أدرك الإبن الفطن أنه لم يرث مقهى و إنما ورث ذاكرة أمة و مجدا من أمجادها. (77)

و (مقهى ريش) : ظل على مر السنين الملجأ الوحيد للمثقفين في مصر منذ القرن الثامن عشر، و يقول عنه المؤرخ عبد الرحمان الرافعي : إن (ريش) مثل بمفرده عاصمة ثقافية جمعت كل التيارات دون تمييز، كما آستوعب معظم مثقفي مصر في فترة الخمسينات و الستينات.

76- المصدر السابق.

77- المصدر نفسه.

و يثبت المؤرخون أن (مقهى ريش) لعب دورا مهما في مجريات الأحداث السياسية والثقافية في مصر و الأحداث أثبتت ما يلي:

أولا : الأحداث السياسية :

و هذه الأحداث تعرضت لها المرجعيات التاريخية : من ذلك أن بعض المؤرخين ذكروا أن البوليس البريطاني كان حريصا على رفض التصريحات بإقامة الحفلات الموسيقية بدعوى أن المقهى يواجه (فندق سافوى) مقر قيادة الحلفاء في الحرب العالمية الأولى.

و (مقهى ريش) إتخذه زعماء ثورة 1919 كمقر سري للقاءاتهم؛ و هذا بآعتراف المؤرخ عبد الرحمان الرافعي ؛ حيث يذكر هذا المؤرخ أن صاحب (المقهى) كان عضوا في خلايا ثورة 1919م.

و على (ريش) قرر الجهاز السري للثورة أن يغتال في 15 ديسمبر 1999 يوسف وهبة باشا رئيس وزراء مصر في ذلك العهد. (78)

و على مقاعد (رش) جلس الزعيم جمال عبد الناصر يحتسي القهوة و كان يحضر بعض الجلسات و لا يتكلم بل ينصت فقط وهو يعد لثورة يوليو 1952. (79) كما تردد على (ريش) الرئيس أنور السادات أيضا...

و كانت (ريش) هي الأخرى جزءا من حياة شاب عراقي جاء يدرس بالقاهرة إلى أن أصبح رئيسا لبلاده وهو صدام حسين. (80)

78- صحيفة (صوت الأمة) المصرية بتاريخ 2002/11/25م.

79- مجلة (صباح الخير) المصرية ع 4 سبتمبر 2001م.

80- المصدر نفسه

ثـانيا : الاحداث الأدبية و الثقافية :

و في مجال الحديث عن (ذاكرة ريش) الثقافية : نذكر أن جـل جلاسها ساهموا في تأصيل الكيان. و من ذلـك أن جوقـة عزيـز عيـد قدمت فصولا من مسرحياتها في عام 1918 علما بأن روز اليوسف كانت هي البطلة في هذه المسرحيات و محمـد عبـد القـدوس كـان يغـني مونولوجات سريعة فيها، و (ريش) قربت بين الفنانين فتزوجـا، و بعد سنة أنجبا إبنهما إحسان عبـد القدوس، و لعـل مـا حـدث مع والـدي إحسـان عبد القدوس ؛ حدث بعد مع أحمد فؤاد نجم و صـافي نازكاظم، و أمل دنقل و عبلة الرويني. (81)

و في (ريش) غنى صالح عبد الحـي، و أم كلثـوم (82)، و الشيخ أبـو العلاء، و علـى مقاعد (ريـش) تفجـر إلهـام أسامة أنـور عكاشـة فـأنتج مسلسل (ليالي الحلمية) الذائع الصيت.

و في (ريـش) إسـتوحى أدبـاء مصـر خاصـة أدبـاء الـستينات و السبعينات الكثير من أعمالهم الإبداعية، كما ولدت به (جماعة جاليري 68) للفنان التشكيلي عادل رزق.

كمـا قـاد مـن هـذا المقـهى يوسـف إدريـس المظـاهرة الكبـيرة عقب اغتيال كمال رسلان.

81- صحيفة (صوت الأمة) بتاريخ 2002/11/25

82- صحيفة (المقطم) ع 30 ماي 1923م.

و في (ريش) إستوحى نجيب سرور أفكار ديوانه الشهير (بروتكولات حكماء ريش. كما إستوحى يوسف القعيد، و جمال الغيطاني، و أمل دنقل، و يوسف إدريس. و عبد الرحمان الأبنودي. و حسني سيد لبيب. و رشيد الذوادي، و د مختار الوكيل و جمعة محمد جمعة، و إبراهيم أصلان، و مجيد طوبيا. و مدحت الجيار. و يحي حقي و سمير سرحان و عبد الوهاب البياتي الكثير من أعمالهم الإبداعية.

- محفوظ ..في (ريش) :

أما الأديب الكبير نجيب محفوظ ؛ فقد كان عاشقا لهذا المقهى ؛ بل و آتخذ منه مقرا جديدا لندوته الأسبوعية بعد إغلاق (مقهى سفنكس). و حافظ على مواعيد لقاءاته بالأدباء و الكتاب في صبيحة كل يوم جمعة. و آنتضمت ندوته بآستمرار إلى منتصف السبعينات : (1976).

و نجيب محفوظ ؛ المرتبط بهذا المقهى و بالأحداث التي حصلت فيه و برواد مجلسه الأدبي من كبار الكتاب و من الأدباء الشبان.. قلت محفوظ أجاب لما سئل عن سر إعجابه بـ (مقهى ريش) قائلا :

((- هنا في هذا المقهى تراقب الأحداث، و تسمع الجديد من الناس فتوصل إلى جمهورك و قرائك ما لم تستطع إيصاله لهم بالكتابة..)) (83)

و عن (ذاكرة ريش) كتب الأديب جمال الغيطاني في مقاله عن (المجالس المحفوظية).

83- انظر مجلة (صباح الخير) بتاريخ 2000/7/8 ص 44.

يقول إنه كان في (ريش) رفقة محفوظ و بالتحديد في نوفمبر 1980 وكان ملتاعا لفقدان والده :

((كنت حزينا كمدا، الجرح مازال طريا ساخنا ينزف.. بدأ بعد رحيل والدي بغتة و أنا بعيد، قلت له إنني لم استوعب بعد رحيل أبي المباغت.

إنني لن أراه مرة أخرى أبدا.. لن ألقاه مرة أخرى.

قال من يدرينا يا جمال ؟.. كما أن المادة تتحوّل إلى أشكال أخرى ربما يتبقى الوعي بشكل ما.. من أين لنا أن نقطع بآستحالة اللقاء؟)) (84)

فهذا هو (ريش) : الذي آصطحب نجيب محفوظ و آحتدم بالنقاشات السخنة بين التيارات القومية و الإشتراكية و الإسلامية : هو مقهى احتل الصدارة عند جيل رافض و آجتذب شخصيات أدبية كان لها وزن في الساحة الأدبية .

* مقهــى لا بــاس :

و (مقهى لا باس) الكائن مقره بشارع قصر النيل بالقاهرة : يقول عنه الروائي يوسف القعيد إن نجيب محفوظ انتقل بندوته الأدبية إليه بعد إغلاق (مقهى ريش) المؤقت : (85)

ففي منتصف السبعينات أصبح (مقهى لا باس) ملتقى لكثير من الأدباء الرواد و الشبان على غير آنتظام... و جلس في المقهى و حول

84- المجالس المحفوظية : جمال الغيطاني (أخبار الأدب) ع 2 ديسمبر 200 ص 6.

85- انظر (أخبار الأدب) ع 2 ديسمبر 2001 م ص 6.

نجيب محفوظ كل من وديع فلسطين، و يحي حقي، و مدحت الجيار، و يوسف القعيد، و جمال الغيطاني، و صنع اله إبراهيم، و يوسف إدريس، و فتحي العشري، و لويس عوض، و د عبد العزيز شرف و سواهم..(86)

* كازينو قصر النيل :

و في " كازينو قصر النيل" بالقاهرة إنتظمت مجالس محفوظ الأدبية و يقول الغيطاني عن هذه المجالس : في هذه المجالس تغيرت الموضوعات المطروحة للنقاش كما تغير الرواد مع الزمن. (87)

و كان يحضر في هذه المجالس : جمال الغيطاني، و صنع اله إبراهيم، و زكي سالم، و محمود أمين العالم، و يحي الرخاوي، و نبيل فرح، و يوسف القعيد و سعد الدين وهبة و عزت القمحاوي و محمد عفيفي و سواهم..

و الغيطاني كتب عن جلسات محفوظ في هذا المقهى يقول : ((إني لأعجب أحيانا من صبره و قوته على التحمل، و طول باله... إنه يصغي طويلا و قد يشارك في النقاش بكلمات محدودة أو ينطق تعليقا ساخرا تعلو بعده الضحكات..)) (88)

86- انظر (مجلة الهلال) 4 أوت 1991 ص 128.

87- فصول : العدد 3 شتاء 1997 ص 333 و ما بعدها.

88- فصول : الغيطاني ص 334.

* (مقهـــى ركس) :

و يقع هذا المقهى بشارع عماد الدين و يعود تاريخ تأسيسه إلى بداية الثلاثينات، و بالتحديد عام 1931 و آمتلك المقهى أولا (داود عدس) ؛ ثـم باعـه لأحـد اليونـانين و يدعـى (جنـاكيس) عـام 1932؛ و الأخير هو الذي أطلق عليه آسم (ركس).

و إثـر وفـاة (جنـاكيس) قـام الورثـة ببيعـه لبعـض المصريـين، و آشترطوا عليهم المحافظة على معالم المقهى و على أثاثه.

و مرت أعوام و أصبح المقهى يتمتع بشهرة واسعة ؛ بل و صار له صبغة أستقراطية لا مثيل لها في مصر.

و جـذب (مقهى ركـس) جمهورا كبيرا مـن الفنـانين و الأدبـاء منهم : نجيب محفوظ.(89)

و في مجلس محفوظ كان يلتقي أدباء عديدون كـ : يوسـف القعيد، و إبراهيم أصلان، و جمال الغيطاني و مجيد طوبيا... و تجري في هذه اللقاءات حوارات سخنة حول هموم العرب و الجذور الشعبية، و حول الروايات المعبرة عن جدل العلاقة بين (الأنا و الآخر) و حتى عن الخصوصية العربية في الإبداع الروائي الخ...

و من المعلـوم أن (مقهى ركـس) عـايش مجموعـات كبيرة مـن الفنانين و الأدباء، وتردد عليه : نجيب الريحاني، و بديع خيري، و سعد أردش، و الحبيب جاماتي، و رشدي أباظة و مصطفى أمين و سواهم...

* مقهـــى عـــرابي :

و(مقهى عرابي) يقع بميدان الجيش بالعباسية ؛ وهو مقهى هام؛

89- انظر مجلة (صباح الخير) المصرية بتاريخ 18 يوليو 2000م

تعود أن يجلس فيه الكثير من السياسيين و الأدباء، و آحتضن المقهى جلسات محفوظ الأدبية مساء كل خميس مع أدباء عديدين، ومع مجموعة (الحرافيش) ؛ التي تكونت في الأربعينات بعد فوز كل من نجيب محفوظ، و يوسف جوهر، وعادل كامل على جائزة (المجمع اللغوي) عن أعمال لهم. (90)

و يقول توفيق صالح عن (الحرافيش) : ((من هنا كانت نواة الحرافيش التي ضمت فيما بعد مجموعة، منها بعض المعروفين أو المشاهير مثل أحمد مظهر، و بعض آخر من غير المعروفين إعلاميا..هذه الجماعة التي تكونت نواتها في الأربعينات، وآستمرت فيما بعد، وتغيرت من فترة لأخرى ؛ حيث كان ينضم إليها أعضاء جدد أو يختفي بعض أعضائها. ولكن الجماعة نفسها ظلت ثابتة، إن إستمرارية (لقاءات الحرافيش كانت ملمحا آخر من ملامحها.)) (91)

و عن أجواء الجلسات الأدبية مع محفوظ في (مقهى عرابي) ؛ كانت هذه الجلسات حميمية و في المناخ الجاد و الساخر معا، و محفوظ طبع تلك الجلسات بالإضحاك و كان يتبارى في رواية النكت مع محمد عفيفي (92)، كما لم تخل هذه الجلسات عن الأحاديث في أحوال الناس، وفي هموم الطبقة الفقيرة.

90- انظر دراسة عن (الحرافيش) لتوفق صالح، فصول ع 3 (شتاء 1997) ص 332.

91- المصدر نفسه ص 332.

92- المصدر السابق

و جلسات محفوظ بالمقهى إمتدت من منتصف الستينات إلى بدايات سنة 1971.. و خلال لقاءاته في كل خميس بأصدقائه : يحرص الكاتب الكبير على إدارة الحوار بكل حرية، و نتج عن كل هذا كما يقول توفيق صالح أن ((تأثر كل واحد منا بالآخرين و أثر فيهم)) (93)

و (الحرافيش) جماعة هامت بالحرية و تعقلت بالنقاشات المفيدة و برصد ما يقع في المجتمع خلال تلك الفترة التاريخية و ما صاحبها من إيجابيات و مزالق، و من قرأ رواية (ثرثرة فوق النيل) ؛ يكتشف أشياء كثيرة من سخرية الحرافيش و من أحاديثهم، و يؤكد توفيق صالح أن جلسات (الحرافيش) كانت خالية من السيدات و من الحشيش الذي عرفته الرواية. (94)

و (مقهى عرابي) ؛ الذي تعلق به محفوظ كثيرا، وظل على صلة دائمة بأصدقائه فيه إلى أن أدركتهم المنية ؛ شهد العديد من الشخصيات الحية التي دخلت عالمه الروائي... و يقدم لنا جمال الغيطاني شهادة حية عن مولد إحدى رواياته في هذا المقهى فيقول في (فصول) : ((في مقهى عرابي شهدت مولد إحدى رواياته كان ذلك عام ألف و تسعمائة و واحد و سبعين، عندما رأينا رجلا أشيب الشعر، جاحظ العينين، غريب الحضور، أصابع يديه نحيلة طويلة. دخل بصحبة أحد أبناء المنطقة و أبدى الخادم إهتماما خاصا به. ثم أحضر رقعة

93- المصدر نفسه ص 332

94- المصدر نفسه ص 331.

الشطرنج ورصَّ الرجل القطع وبدأ اللعب.. مال الأستاذ عليَّ متسائلا عن شخصية القادم الجديد.. من الواضح أنه لفت نظره بشكل ما.

سألت فقيل لي الاسم. عدت إلى الأستاذ لأخبره أن هذا الرجل هو اللواء حمزه البسيوني المدير السابق للسجن الحربي الرهيب.

و أطال الأستاذ النظر في تلك اللحظات ولدت رواية (الكرنك الشهيرة.)) (95)

* مقهــى الفيشـاوي :

و (الفيشاوي) مقهى تاريخي عريق، و يقع في (حي الحسين) بالقاهرة، و آختلف المؤرخون في تحديد تاريخ تأسيسه.. فقيل إنه تأسس عام 1772 م (96)، و قال عنه آخرون هو مقهى عريق و قد يعود بناؤه إلى مائتي عام ؛ لكن الجميع يتفق على أن مؤسسه هو فهمي الفيشاوي ؛ وهو مصري وسيم ؛ إشتهر بعمق صلاته بالقصر ؛ ..حيث كان يعد الحفلات الملكية، و ذاع صيته لما أهدت له إحدى الأميرات رواقا كبيرا يتألف من ثلاثين حجرة. و لم يبق منها الآن إلا بضع حجرات تشكل المقهى التاريخي الحالي : الذي آشتهر بتقديم الشاي الأخضر و النعناع(97).

95- المرجع السابق : الغيطاني (فصول) ص 334 و (قهاوي القاهرة زمان) صحيفة الإهرام بتاريخ 2002/12/3م.

96- انظر (مقاهي الأدباء في الوطن العربي) : رشيد الذوادي ط مصر 1999 ص 135.

97- مجلة (صباح الخير) المصرية ع 4 سبتمبر 2001 ص 40 و ما بعدها

ومن المعلوم أن المقهى التاريخي كان عند إنشائه يتكوّن من واجهة أنيقة ودهليز طويل، وحول هذا الدهليز فتحت مقصورات صغيرة تحوي موائدر خامية ودكك خشبية لا تزال موجودة حتى الآن ويقال إن تاريخ صناعتها يعود إلى عام 1910م

و (مقهى الفيشاوي) ؛ يحتفظ و حتى الآن بآلات موسيقية عجيبة و تحف نادرة مهداة من رجال الساسة و الضيوف، و يتصدره حاليا (مرآة) ضخمة بلجيكية الصنع و مهداة من أحد أمراء مصر في نهاية القرن الماضي.. و على إحدى جدران المقهى (سجادة) حريرية عليها رسم مشكاة و أهداها ملك الأفغان المنفي قبل عودته إلى بلاده.

و (المقهى) يحكي ألف حكاية و حكاية عن زواره.. و يحكي طرائف عن أدباء و أعلام، و عن نقاشات أدبية و فكرية دارت فيه.. و يذكرنا بطلاب الأزهر و معاركهم، و بزبائن الفيشاوي و جلاسه من ساسة و زعماء منهم : الزعيم الراحل سعد زغلول، و الرئيس الراحل جمال عبد الناصر و الذي أهدى للمقهى صورته. و الرئيس أنور السادات، و الفريق عزيز المصري. و عدلي باشا، و لاضوغلي باشا، و أسامة الباز، و أدباء و كتاب منهم : أحمد شوقي، و حافظ إبراهيم، و أحمد فكري، و طه حسين، و عباس محمود العقاد، و أحمد حسن الزيات، و محمد الخضر حسين، و شوقي أمين، و الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، و محمد فريد، و الشيخ محمد عبده، و جمال الدين الأفغاني، و أنيس منصور، و زكي مبارك، و نجيب محفوظ، و د مدحت الجيار، و الأديب التونسي رشيد الذوادي، و طه أبو فاشا، و القصاص حسني سيد لبيب، و القصاص جمعة محمد جمعة، و صبري السيد، و الدكتور عبد العزيز شرف، و الروائي جمال الغيطاني. و الشاعر أحمد

فؤاد نجم، و يوسف القعيد، و الشاعر فاروق جويدة، و مصطفى الضمراني و سواهم... (98)

و من طرائف التاريخ عن (مقهى الفيشاوي) أن نابليون زاره و آحتسى فيه الحلبة، كما زارتِ المقهى أمبراطورة بريطانيا (أوجيني) و ذلك عند زيارتها لمصر بدعوة من الخديوي إسماعيل بمناسبة إفتتاح (قناة السويس).

و من المعلوم أن الخديوي إسماعيل كان عاشقا للأمبراطورة و معجبابها أشد الإعجاب؛ من ذلك : قدم لها هدايا ثمينة عند زيارتها لمصر.. و تذكر المصادر التاريخية أن الخديوي إسماعيل أهدى للأمبراطورة سريرا من الفضة الخالصة المطعمة جدرانه بالذهب و الياقوت الأحمر النادر الوجود.

و من شدة إعجاب الخديوي بالأمبراطورة إشرافه على إعداد طريق ستمر بها عربتها بحيث تكون هذه الطريق معدة إعدادا جيدا و آرتفاعها يكون بمقدار معين ؛ حتى يتسنى للأمبراطورة و طبقا لموضع جلوسها أن تتكىء عليه.

و الحاج فهمي الفيشاوي إستقبل الأمبراطورة بعدما تعبت لما زارت (المقطم)، و أعجبت به، و دعته في يوم الغد لقصر الضيافة لإعداد (الشاي الأخضر)، و لبّى الحاج فهمي الفيشاوي الدعوة و ذهب إلى القصر و أعدّ الشاي، و مكث به زمنا طويلا ..

98- (مقاهي الأدباء في الوطن العربي) : رشيد الذوادي ط مصر 1999 ص 135 و ما بعدها.

و لا ندري ماذا حدث في تلك الليلة؟..(99)

و السؤال ظل مطروحا في المقاهي و البيوت طيلة ثلاثين عاما، حتى جاء ممثل الإذاعة البريطانية يسأل، و قدم شيكا على بياض مقابل الإجابة عن سؤال واحد؟.. هل فعل معها ما لم يتمكن منه الخديوي؟

و فوجئ بالحاج فهمي يمسك به و يطرحه على الأرض.. و ممثل الإذاعة البريطانية يصرخ.. و أخذ يلعنه و يلعن الإذاعة و من عهد إليه بهذا الأمر (100)

و هكذا ظل السؤال بلا جواب، وآحتفظ الحاج فهمي الفيشاوي بالسرّ إلى مات سنة 1967 حزنا على مقهاه؛ لأنه سمع أن رئيس بلدية القاهرة فكّر في تهديم المقهى؛ و لكنه لم يفعل بعد موت صاحبه.

فهذه قصة من قصص (مقهى الفيشاوي) حدثت في زمن مضى و هناك نماذج أخرى من القصص الشائقة؛ من ذلك أن المقهى تحوّل أثناء قيام الحرب العالمية الأولى إلى منتدى ثقافي يجتمع فيه رجال السياسة بالأزهريين يوميا بعد صلاة العصر لمناقشة مختلف القضايا و للنظر في الموقف السياسي العام (101).

99- مجلة (صباح الخير) بتاريخ 2000/7/18 ص 43 و ما بعدها

100- المصدر نفسه..

101- (مقاهي الأدباء في الوطن العربي) : للذوادي، و (مجلة صباح الخير) ع 4 سبتمبر 2001 ص 40 و ما بعدها.

و (مقهى الفيشاوي)- و على مر التاريخ - تحدّى أيام الشدائد، و حقق نجاحات واسعة، و أمكنه أن يجمع العديد من شعراء الأغنية المصرية، كما حظي بلقاءات مثمرة جمعت بين محمود بيرم التونسي و الشيخ زكريا أحمد.

فهذا هو (مقهى الفيشاوي) التاريخي ؛ الذي صاحب أعلاما، و قادة سياسيين، و أدباء كبارا و في مقدمتهم الكاتب الكبير نجيب محفوظ الذي تحدث عن (الفيشاوي) بقوله : ((كان جلوسي بمقهى الفيشاوي يوحي لي بالتفكير، كل نفس شيشة كان يطلع بمنظر.. كان خيالي يصبح نشيطا جدا أثناء تدخين الشيشة، كان معظم وقتي أقضيه في الفيشاوي أيام العطلات، المقهى عالم من الأنس، ملتقى الأصحاب.)) (102)

و محفوظ الذي أحبّ (مقهى الفيشاوي) و تردّد عليه في شبابه و في كهولته و شيخوخته يقول لمحمد سلماوي عن المقهى في شهر رمضان بعدما واظب على الجلوس فيه بداية من عام 1967م.

((كانت ليالي رمضان منذ الطفولة تفوق في متعتها و جمالها جميع الليالي حتى الأعياد، لقد كانت ليالي رمضان أمتع عندي من العيد الصغير أو العيد الكبير، فأول حرية ذقتها كانت في رمضان حين أصبح يسمح لي لأول مرة أن أخرج مع الأصدقاء و أن اسهر معهم في الحي فنلعب و نلهو بعد أن كنا جميعا مكبلين طوال أيام السنة حتى

102- نجيب محفوظ نتذكر .. جمال الغيطاني ص 89.

أننا إذا لعبنا تحت البيت كانوا يراقبوننا من الشبابيك، أما في رمضان فقد أعطونا الحرية كاملة فكنا ننزل بالفوانيس فنلف و ندور في ميدان بيت القاضي و الحسين و نسهر إلى حد لم يكن مسموحا من قبل.

أما في سني الكبير فقد كانت السهرة بقهوة الفيشاوي مع الأصدقاء لا تدانيها أية متعة أخرى، لقد كنا نذهب بعد الإفطار و نظل بالفيشاوي حتى السحور لنتناول سحورنا هناك، و نعود مشيا على الأقدام إلى العباسية حيث كنا نسكن عن طريق الجبل فكان ذلك يحضرني نفسيا للصيام و التأمل في اليوم التالي. فلم يكن هناك في هذه الطريق إلا المقابر و الخلاء.

في ذلك الوقت لم يكن هناك تليفزيون و لا فوازير و لا مسلسلات و كانت متعتنا في ((قهوة الفيشاوي)) حيث كان البعض يلقي آخر النكات و البعض الآخر " يدخلون لبعضهم قافية"، و كل ذلك في جو من الود و الصداقة و البهجة و السرور يستمر حتى الصباح." (103)

* (مقهى سوق الحمزاوي) :

و يقع هذا المقهى بـ (حي الحسين) و في وسط (سوق الحمزاوي) ؛ وهو سوق شعبي هيأته الأقدار ليكون وعاءا للحظات التأمل الصوفي و الحب و الصحبة.

103- راجع (من حوارات نجيب محفوظ عن (قهوة الفيشاوي) : محمد سلماوي ؛ الأهرام بتاريخ 1994/1/23م

و يقول الغيطاني عن هذا المقهى : الذي مازال موجودا و تظلله تكعيبة عنب " إعتاد الأستاذ التردد عليه بمفرده.. هو مقهى حزين، معزول، موحي بالتأمل." (104)

لقد شاء محفوظ أن يختلي بنفسه في هذا المقهى لإثراء حاجاته و أشواقه : و ليستوعب واقعية السطح المرئي، و بين الفينة و الأخرى وسط دوائر الوعي المعددة .. و عندئذ ينفرد بنقل ما شاهده في دقة و وفق أفقه الفكري.

* (مقهى سي عبده) :

و مقهى (سي عبده) : هو مقهى شعبي بـ (خان الخليلي) وهو مقهى تحت الأرض و وصفه لنا محفوظ في (الثلاثية) و أزيل في الثلاثينات عندما بنت الأميرة شويكار المنازل الحديثة في (خان الخليلي).. و حدثنا محفوظ عن (مقهى سي عبده) قائلا : ((هذا المقهى كنت أحبه. كان تحت الأرض تنزل سلم، تجد دائرة، في الوسط فسقية. و تحيطها مقاصير صغيرة، و مشهورة بالشاي، أحسن شاي، الحقيقة أنا سميته قهوة أحمد عبده، لا أذكر آسمها الحقيقي ..)) (105)

و في مقهى (سي عبده) كان محفوظ يجلس مع كل من عبد الحميد جودت السحار، و عبد الحليم عبد الله.. و مع أدباء و شخصيات من الطبقة الوسطى.. و أحاديثه كانت في المضامين الكبرى، و في هموم الحارات الشعبية و أتواقها، و فيما يعبر عن عذابات الناس. و يكشف عن الكوارث الكاوية و النكبات القاصمة ..

104-فصول : (شتاء 1997) ص 334 و ما بعدها.

105- نجيب محفوظ يتذكر : جمال الغيطاني ص 88.

و محفوظ نقل إلينا في الفصل السادس من (قصر الشوق) مشاهد حية من لقاءات كمال عبد الجواد بصديقه فؤاد في (مقهى عبده) بخان الخليلي.

و رأينا في ثنايا نصه ما عبر عن أدق التفاصيل في المكان، و آختار من المعاني المباشرة ما آكتملت به الصورة الوصفية للواقع.

و مما كتبه محفوظ في هذا الفصل ما يلي : ((سارا جنبا إلى جنب صوب درب قرمز، متجنبين طريق النحاسين، ليتفاديا من المرور بالدكان حيث يوجد والداهما..كمال بقامته الطويلة النحيلة، و فؤاد بقامته القصيرة، تكاد صورتهما تلفتان الأنظار بتناقضهما. تسائل فواد بصوت هادئ.

- أين تذهب هذا المساء؟

فأجابه كمال بصوته الإنفعالي :

- قهوة أحمد عبده...

كان كمال – عادة يقرر، و فؤاد يرافق رغم ما عرف عن الآخر من رجاحة العقل، و رغم نزوات كمال التي كانت تبدو مضحكة في عين رفيقه ؛ مثل دعواته المتكررة له للذهاب إلى جبل المقطم و القلعة و الخيمية لتسريح النظر – على حد تعبيره – في مخلفات التاريخ و عجائب الحاضر. و لكن الحق أن العلاقة بين الصديقين لم تخل من تأثر بفارق طبقتيهما، و كون الأول ابن صاحب الدكان و الآخر ابن وكيله. و عمق هذا التأثر أن فؤاد إعتاد في صباه أن يؤدي ما يكلف به من شراء بعض حوائج لبيت السيد أحمد. و أن يكون صنيعة لكرم أمينة التي لم تكن تضن عليه بأحسن ما عندها من مأكل– و كثيرا ما يصادف مجينه أوقات الغداء– و أصلح ما يمكن استغناء عنه من ملابس كمال،

فربط بينهما منذ البدء شعور باستعلاء من ناحية و بالتبعية من ناحية أخرى ..وهو إن مضى يزول بحلول شعور الصداقة محله، إلا أن أثره النفسي لم يقتلع من الأعماق، و قد قضت ظروف بألّا يجد كمال من رفيق تقريبا طوال العطلة الصيفية إلا فؤاد الحمزاوي ؛ ذلك أن رفاق صباه من أهل الحي لم يواصلوا التعليم إلى النهاية : منهم من توظف بالابتدائية أو الكفاءة، و منهم من آضطر إلى مزاولة عمل من الأعمال البسيطة مثل صبي قهوة بين القصرين و صبي الكواء البلدي بخان جعفر. كان كلاهما من أقرانه في الكتاب. و مازال ثلاثتهم يتبادلون تحية الزمالة القديمة كلما اتفق لهم اللقاء، تحية مشربة بالاحترام من ناحيتهما لما يضفيه طلب العلم عليه من امتياز، مشبعة من ناحيته بالمودة الصادرة عن نفس مطبوعة على التواضع و البساطة، أما أصدقاؤه الجدد الذين آكتسب صداقتهم في العباسية : حسن سليم، و اسماعيل لطيف، و حسين شداد فكانوا يقضون العطلة في الاسكندرية و رأس البر، فلم يبق له من رفيق إلا فؤاد.

بلغا مدخل قهوة أحمد عبده بعد مسيرة دقائق، فهبطا إلى مستقرها الغريب في جوف الأرض تحت ((حي خان الخليلي))، و اتجها إلى مقصورة خالية، و فيما هما يجلسان متقابلين حول المائدة إذ تمتم فؤاد في شيء من الحياء :

- ظننتك ستذهب هذا المساء إلى السينما !.

و شى قوله برغبته في الذهاب إلى السينما، و لعلها راودته قبل أن يذهب إلى مقابلة كمال في بيته، و لكنه لم يفصح عنها، لا لأنه لا يستطيع أن يثني كمال عن رأي فحسب، و إنما لأن كمال هو الذي يقوم بنفقات السينما إذا ذهبا إليها معا، فلم تواته شجاعته على التلميح

إلى رغبته حتى آستقر بهما المجلس بالقهوة، حيث يمكن أن يؤخذ قوله مأخذ الملاحظة البريئة العابرة.

- سنذهب يوم الخميس القادم إلى الكلوب المصري لمشاهدة شارلي شابلن، فلنلعب الآن عشرة دومينو...

خلعا طربوشيهما و وضعاهما على مقعد ثالث، ثم نادى كمال النادل، طلب شايا أخضر و دمينو. بدأ المقهى المدفون كجوف حيوان من الحيوانات المنقرضة طمر تحت ركام التاريخ إلا رأسه الكبير ؛ فقد تشبث بسطح الأرض فاغرا فاه عن أنياب بارزة على هيئة مدخل ذي سلم طويل. و ثمة في الداخل صحن واسع مربع الشكل مبلط بالبلاط المعصراني تتوسطه فسقية رصت على حافتها أصص القرنفل، و أحدقت بها من الجهات الأربع أرائك فرشت بالحصير المزركش و الوسائد، أما جدرانه فقد انتظمتها مقاصير صغيرة الحجم متجاورة ؛ كأن الواحد منها كهف منحوت في الحائط، لا نافذة بها و لا باب لها، و آقتصر أثاثها على مائدة خشبية و أربعة مقاعد و مصباح صغير يشتعل ليل نهار في كوة بأعلى الجدار المواجه للمدخل. و كأن القهوة إكتسبت من موقعها الغريب بعض صفاته ؛ فهي تهوم في هدوء غير مألوف لسائر المقاهي، و ضوء غير باهر، و جو رطيب، و قد إنطوت كل جماعة على نفسها في مقصورتها أو فوق أريكتها، تدخن النارجيلة و تحسو الشاي و تهيم في دردشة لا نهاية لها، تكاد تشملها نغمة صبا و آنية متصلة إلا أن تقطعها في فترات متباعدة سعلة أو ضحكة أو قرقرة مدخن منهم.

كانت ((قهوة أحمد عبده)) في نظر كمال مجتلى للمتأمل و تحفة للحالم، فؤاد - و أن لم تغب عنه طرافتها أول عهده بها - فلم

يعد يجد فيها إلا مجلسا كئيبا تغشاه الرطوبة و الهواء الفاسد، و لكنه لم يكن يملك إلا أن يلبي كلما دعي إليها !.

- أتذكر يوم رآنا أخوك سي ياسين و نحن في مجلسنا هذا؟

قال كمال باسما :

- نعم، سي ياسين متسامح و لطيف و لم يشعرني أبدا بأنه أخي الأكبر، بيد أني رجوته يومذاك إلا يشير إلى مجلسنا في البيت لا خوفا من أبي ؛ فإن أحدا عندنا لا يجرؤ على مكاشفته بمثل هذا الأمر، و لكن إشفاقا من إزعاج والدتي، تصور أنها ترتعب إذا علمت بترددنا على هذه القهوة أو غيرها، و تظن أن أغلبية رواد المقاهي من الحشاشين و سيء السمعة !.

- و سي ياسين، ألم تعلم بأنه من رواد المقاهي؟

- إذا قلت لها هذا قالت لي : إن ياسين "كبير" و لا خوف عليه، أما أنا فصغير !، الظاهر أني سأظل معدودا في الصغار في بيتنا حتى يدركني المشيب !.

جاء النادل بالدومينو، و قد حين من الشاي على صينية فاقعة الإصفرار. فتركها جميعا على مائدة و ذهب، تناول كمال قدحه من فوره و راح يحتسيه من قبل أن تخف حرارته، ينفخ السائل ثم يتمززه، و ينفخ مرة أخرى و يمصمص شفتيه كلما لسعته الحرارة، و لكن ذلك لا يردعه فيعاود المحاولة في ناد و جزع كأنه محكوم عليه بالفراغ منه في دقيقة أو دقيقتين، على حين جعل فؤاد يراقبه صامتا أو يمد بصره إلى لا شيء وهو مستند إلى ظهر مقعده في رزانة أكبر من سنه، تلوح في عينيه الواسعتين الجميلتين نظرة عميقة هادئة، و لم يمد يده إلى قدحه حتى كان كمال قد فرغ من مغالبة قدحه، و عند ذاك أقبل يتحسى الشاي في تأن مستطعما مذاقه مستلذا نكهته. وهو يغمغم بعد كل حسوة "الله.. ما

أطيبه" ، و الآخر يحثه على الفراغ منه بصبر نافد كي يأخذا في اللعب، وهو يقول منذرا :

- لأهز منك اليوم، لن يحالفك الحظ أبد الدهر..

فيبتسم فؤاد مغمغما :

- سنرى..

و أخذا يلعبان.

كان كمال يولي المباراة إهتماما عصبيا : كأنه يخوض معركة تتوقف على نتائجها حياته أو كرامته. بينما مضى فؤاد في نظم قطعه بهدوء و مهارة فلم تفارق الابتسامة شفتيه، أقبل الحظ أم أدبر، هش كمال أم عبس، و قد خرج كمال – كعادته- عن طورد. فهتف به : "لعب سخيف، و حظ سعيد". فلم يزد الآخر عن أن ضحك ضحكة مهذبة لا تثير حنقا و لا توحي بتحد. طالما قال كمال لنفسه وهو يتميز غيظا " لن يبرح حظه راكبا حظي". و لم يكن يلقي اللعب بالتسامح الخليق باللهو و التسلية. بل الحق لم يكن ثمة فارق- في اهتمامه و حماسه- بين جده و لهوه. على أن تفوق فؤاد في المدرسة لم يكن دون تفوقه في الدومينو : كان أول فرقته بينا كان هو في الخمسة الأوائل : فهل ثمة دور للحظ في ذلك أيضا؟، كيف يعلل تفوق الشاب الذي ينطوي له في الأعماق على شعور بالاستعلاء ظن أنه ينبغي أن يمتد إلى المواهب العقلية على السواء؟. لم يعدم رأيا يهون به من تفوق صاحبه. فهو يقول أنه يكرس وقته كله للمذاكرة و أنه لو كان عقله بالتفوق الذي يزعمون لأغنى عنه بعض هذا الوقت و يقول أيضا : إنه يتجنب الألعاب الرياضية و قد برز هو في أكثر من نوع منها، و يقول أخيرا : إن فؤاد يقتصر في مطالعاته على الكتب المدرسية. و إذا تراءى

له أن يقرأ كتابا غير مدرسي في العطلة : لاحظ في اختياره أن يكون مفيدا لدراسته اللاحقة. أما هو فلا تحد مطالعته حدود و لا توجهها منفعة، فما وجه الغرابة في ذلك في أن يسبقه الشاب في الترتيب؟. غير أن سخطه هذا لم يعرض صداقتيما للوهن ؛ كان يحبه و يجد في رفقته مؤانسة و مسرة إلى أنه لم يظن – على الأقل فيما بينه و بين نفسه – بالإقرار بفضائله و مزاياه.

تواصل اللعب و انتهت العشرة – على غير ما أنذر به مطلعها – بانتصار كمال !، فتطلق وجهه، و ضحك ضحكة عالية، ثم سأل غريمه : ((عشرة أخرى؟)). و لكن فؤاد قال باسما ((حسبنا اليوم ما كان..)) (106)

* (مقهـى علي بـابا) :

و مقهى (علي بابا) بميدان التحرير، تعوّد نجيب محفوظ أن يجلس فيه بمفرده، و أحيانا مع أصدقائه في فصل الشتاء و خاصة في بدايات سنة 1989.

و صاحب محفوظ في هذه الجلسات الصباحية عدد من الأدباء منهم : جمال الغيطاني، و زكي سالم، و يوسف القعيد، و محمد سلماوي و في جلسة أدبية مع رفيق عمره جمال الغيطاني أجاب محفوظ عن سؤال الغيطاني :

– أيهما أفضل إلى قلبك (الحرافيش) أم حديث الصباح و المساء؟..

106– انظر (قصر الشوق) : نجيب محفوظ ط مصر 1998.

و أجاب محفوظ بقوله :

- (أظن الحرافيش) : أحيانا يتأثر الإنسان برأي الآخرين.

و يسأل الغيطاني سؤالا ثانيا في هذه الجلسة :

- ماذا عن الروايات التي لم تنشر ؟

- قال : ثلاث رواية بطليا لاعب كرة قدم. كتبتها في الأربعينات، مزقتها.. رواية عن الريف لم أنشرها و لا أدري مقرها الآن ؛ لأني لا أحتفظ بمسودات : و رواية أخرى إجتماعية ؛ ربما تكون مسودتها عند االمخرج حيري بشاره. (107).

- محفوظ ..في مقاهي فنادق القاهرة :

و محفوظ القائل عن المقهى : " هو محور الصداقة".. و عرفت المقهى في سن مبكرة منذ أوائل الثانوي بفضل سيد الشماع صديقنا في الغورية" (108).. قلت محفوظ هذا في سنواته الأخيرة عرف طريقه إلى مقاه ملحقة بالفنادق على إثر محاولة إغتياله في يوم 14 أكتوبر 1994م.

و من بين هذه المقاهي :

* (مقهى فندق ميناهاوس) في الهرم :

و يصحبه في هذا المقهى أصدقاؤه الأوفياء و منهم : جمال الغيطاني، و يوسف القعيد، و زكي سالم. و حسن ناصر، و عماد العبودي.

107- انظر (أخبار الأدب) ع 2 ديسمبر 2002.

108- (نجيب محفوظ يتذكر) ص 88.

*و (مقهى فندق شبـــــرد) :

وهو مقهى جميل جدا. و خصصت إدارة الفندق للكاتب الكبير مكانا رائعا في الطبق العلوي..

و آستقبلني محفوظ مرتين في جلسته في (شبرد).

- الأولى عام 1996

- الثانية سنة 1998.. وفي هذه الجلسة كان حاضرا معنا يوسف القعيد، و زكي سالم، و عماد العبودي و مستشرقون أسبان. و دار نقاش حميمي حول شخصيات محفوظ القاهرية، كما جرى نقاش واسع حول ما جرى في أندونيسيا من صراعات و صخب سياسي أيام زمان.

* سفينــــــــــــة فـــــــــرح بـــــوت :

و جلسات (فرح بوت) ظلت جلسات مغلقة و تتم أسبوعيا و في مساء كل يوم ثلاثاء .. و يحضرها عدد من الأدباء و أصدقاؤه ؛ فترى هناك صنع اله إبراهيم، و يوسف القعيد و زكي سالم، و جمال الغيطاني و أحمد مظهر. و توفيق صالح و سواهم...

مقاهي نجيب محفوظ في الأسكندرية !..

- الأسكندريـــة تحكـــي :

حينما نتحدث عن الأسكندرية : يتراءى لنا ذلك التاريخ الحافل بالإنتصارات و العطاءات.. و يتراءى لنا ذلك المكان العامر الحي : الذي إزداد عمرانا و سكانا و نشاطا على مر السنين..

و تذكرنا أحداث الأسكندرية بتلك المدينة الفاتنة المقسمة إلى مساحات بين الشوارع و المطلة على البحر الأبيض المتوسط : و التي أسسها الأسكندر الأكبر عام 331 ق م عند مجيئه إلى مصر : خلال مطاردته للجيش الفارسي الزاحف إلى بلاده.

و إذا ما كان موقع الأسكندرية ممتازا وفاتنا : فإن في تاريخها و حضارتها و في مكتبتها المشهورة ما يصلها بسائر الثغور و الأقطار : وهو ما يفيدنا في الكشف عن أصالة أجيال. و عن إيمان شعب مكافح، أحب هذه الأرض، و عاش في أحضانها الرحيمة.

و (الأسكندرية) كمدينة و فضاء حضاري – ظلت و عبر عصورها الممتدة– : تحكي عن حكايات عجيبة، و عن بطولات قهرت المعتدين، و عن إنجازات ضخمة : بوأتها : لكي تصبح عاصمة عقلية شدت لها الرحال في القديم.. و بالتالي صارت موطنا قويا يهزأ بالأعداء و الغزاة.

و المعروف عن الأسكندرية أنها أنجبت أبطالا و عباقرة في الميادين الوطنية، و في العديد من المجالات الثقافية و العلمية، و جميع هؤلاء كانت لهم إضافات. و أدوا بكفاحهم و خبرتهم ما عزز سمعة الأسكندرية و شهرتها الواسعة.

و إذا مـا كـان تـاريخ الأسـكندرية مليئـا بـالمواقف الشـجاعة و الصلبـة ؛ فـإن في صفحـات هـذا التـاريخ مـا يحكـي عـن النابـهين مـن علمائها، و أدبائها، و عن كبار الموسيقيين و المتصوفين و الأعلام : الذين أنجبتهم و خلّدوا آسمها على مرّ العصور.

و منـذ زمـان مضـى و الأسـكندرية بآثارهـا و أحداثهـا و أمجادهـا تثبت رسـوخ جذورها في التاريخ، و آسـتيعابها لحضـارات شتـى، و أنبتـت شخصيات ناضلت في سبيل الحرية و الحق و العـدل، كما أحبـها أعـلام و أدباء كبـارا مـن بينهـم : أبـو الحسـن الشـاذلي، و سيد درويش، و سعد زغلول، و أحمد زكي أبو شادي، و عبد الله النديم، و طه حسـين، و عبد العزيـز جـاويش، و توفيـق الحكيـم، و نجيـب محفـوظ و سمـير سـرحان و سواهم من الشخصيات المهمة في التاريخ القديم و المعاصر.

و مـن ذكريـات نجيـب محفـوظ عـن (الأسنكدرية) قولـه : ((في الأسكندرية كنّا نسهر مع الشلة، في الصباح يذهب أصدقائي إلى البحـر، و أمشـي أنـا علـى الشـاطيء، أبـدأ رحلـتي مشـيا علـى الأقـدام حتـى الشاطبي .. و في اليوم التـالي أبـدا مـن الشـاطبي إلى الإبراهمية، و في اليـوم الثـالث أمشـي مـن الإبراهيميـة إلى كليوبـاترة.. و هكـذا، و آستمر هذا حتى تعرفت بتوفيق الحكيم)) (109)

- الأسكندريــة .. بين المقــاهي العريقة و ذكريــات الأيام :

و مدينــة الأسـكندرية تمـيزت بالمقــاهي العريقــة الفــاخرة و بالخصوص تلك المقاهي التي تشرف على البحر مباشرة كـ : (مقهى

109- انظر (نجيب محفوظ.. يتذكر) : جمال الغيطاني ص 94.

أنتينـوس) ؛ و ظـل المكـان السـياحي الأول في الأسـكندرية خلال الأربعينات و الخمسـينات، و لم يكـن مسـموحا في هـذه الفـترة بالدخول إليه إلا لفئة الباشوات كـ: النحاس باشا، و فـؤاد سـراج الديـن، و طبقـة الفنـانين الكبـار كـأم كلثـوم. و محمـد عبـد الوهـاب، و فريـد الأطرش.. و سواهم..

أما (مقهى ديليس) ؛ فهو مقهى عريق جدا أنشيء عام 1920م، و لم تدخله أي تعديلات منذ إنشائه، و يعتبر كمنتدى للشخصيات المهمة في مصر في أيام زمان...! و جلس فيه كل من الزعيم سعد زغلـول، و المجموعة الخاصة بمصطفى كامل، و محمد فريد و الكاتبين الكبيرين : توفيق الحكيم و نجيب محفوظ. (110)

أما (مقهى الترام) ؛ فهو مقهى معروف بالأسكندرية و تعود أن يجلس فيه محمود بيرم التونسي، و سيد درويش، و الشاعر كامل حسـني، و الصحفي مصطفى أمين.(111)

و (مقهى الكريستال) و يعد من أهم و أعرق مقاهي الأسـكندرية في العصر الحديث.. و يقع على شـاطئ البحـر، و في وسـط المنطقـة الممتدة من المنشية حتى محطـة الرمل، و تم في هـذا المقهى – و في أواخر عام 1931م اجتماع هام حضره أربعـة و ثلاثون كاتبا من أدبـاء الأسـكندرية و أعلنـوا بعـد حـوار طويـل تأسـيس (جماعـة نشـر الثقافـة بالاسـكندرية)، و إثر الإجـراءات التمهيدية أعلـن عـن تأسـيس الجماعـة

110- صحيفة (الشرف الأوسط) الصادرة بلندن بتاريخ 1999/6/28

111- المصدر نفسه.

رسميا في فبراير 1932م و آشترك فيها عدد من أدباء الأسكندرية أذكر منهم : عثمان حلمي. و خليل بدوي، و محمود مكي، و علي الحلواني، و عبد القادر العوا. و صديق شيبوب، و إلياس بدوي و غيرهم... (112)

و من المقاهي الشهيرة بالأسكندرية (مقهى تيرو) ؛ و يقع بـ (حي الشاطبي)، و آحتضن المقهى عددا كبيرا من الأدباء في أيام مصيفهم، و تردد عليه بالخصوص : عبد الرحمان الرافعي، و نقولا يوسف، و توفيق الحكيم. و ثروت أباظة و ثلة من مثقفي مدينة الأسكندرية الزاهية. (113)

- مقــاهي محفوظ... في الأسكندرية :

و نجيب محفوظ ؛ الذي أحبّ الأسكندرية منذ شبابه، و هام بها منذ أيام الدراسة الثانوية ؛ إعتاد أن يذهب إلى هذه المدينة في إجازاته الصيفية بعدما يمنحه والده عشرة جنيهات كمكافأة على نجاحه.. و يقول الكاتب القدير عن الأسكندرية في رواية (ميرامار) : ((الأسكندرية قطر النّدى، نفثة السحابة البيضاء، مهبط الشعاع المغسول بماء السماء. و قلب الذكريات المبللة بالشهد و الدموع..)) (114)

112- انظر (مجلة الأديب) اللبنانية س 35 ع (يناير / ديسمبر 1976م) مقال بقلم عبد العليم القباني.

113- انظر مجلة (الهلال) ع أوت / أغسطس 1991 م ص 130 مقال كتبه شوقي هيكل.

114- نجيب محفوظ... يتذكر ص 91.

و هـذا الكـاتب العاشـق للأسـكندرية ؛ إسـتمد مـن (المكـان) العديـد مـن موضوعـات قصصـه و رواياتـه كـ : (السـمان و الخريـف) و (ميرامار) و بعدما قضى معظم أيـام عمره يستمد موضوعاته. و أحـداث رواياته من مسقط رأسه مدينة القاهرة.

و حضور الأسنكدرية كمكـان جديـد في أدب نجيب محفوظ : يمثل مرفأ هامـا و قويا في أدبنا المعاصر، و تشهد به روايته (ميرامار) ؛ ففي (ميرامار) : وهو آسـم بنسيون بالأسـكندرية ؛ تكتشف ملامح أخرى من تجربة محفوظ الروائية ؛ فبعد المرحلة الفلسفية ؛ و بدأت بـ (أولاد حارتنا)، و بعد المرحلة التاريخيـة : و تجلـت لنـا في (رادوبيس) و في (كفاح طيبة)، و الحدث الإجتماعي في (الثلاثية) ؛ ترى محفوظ قلقـا و باحثا عن العدل الإجتماعي، و عن تجدد الحياة بمفاهيم قيمها الحية في حياتنا الإجتماعية.

و في (أجـواء الأسـكندرية) إلتقـط محفـوظ مـن المـاضي و الحاضر.. و تساءل أكثر من مرة عما جرى و يجري في (فندق ميرامار)؟ و الفندق كـان على ملك سيدة يونانيـة و آتخـذت منـه سـكنا لزبائنـها و للدعارة أيضا..

و رواية (ميرامار) – و كما تبدو لنا- ؛ هي حكاية بسـيطة، و لكـن قدرة محفوظ تجلت في التقنية الفنية، و في تحويـل بضعـة أشـخاص حول حدث واحد. و في وصفه الجيـد لطائفة من الإنتهازيين و للبعض من المتسللين للمواقع الثورية الجديدة أملا في الحصول علـى المنـافع المادية.

و إذا مـا كـانت شخصيات الروايـة متناقضة، و تختلـف جميعـها بآختلاف مواقفهم من (زهرة) ؛ تلك الفتاة الريفية الهاربة إلى الفندق من

زيجة مفروضة عليها : فإن محفوظ وفق كل التوفيق في تقديم (زهرة) كشخصية محورية، و عندما عرفنا بها : عرفنا بنموذج فريد.. أو لم تكن (زهرة) باحثة عن الأمل و الإستقرار و تنشد المحبة؟..

فهذا نموذج من أدب نجيب محفوظ عن الأسكندرية ، وهو كما ترون نموذج كتبه على نظام الأنماط و إن كان بناء الرواية قائما. و من عادة نجيب محفوظ أن يقضي الصيف في الأسكندريةن و في ساعة محددة من عصر كل يوم يجتمع بأصدقائه من شعراء و كتاب الأسكندرية و يشرب معهم القهوة. و كانت هذه اللقاءات تتم في مقاهي و كازينوات عديدة منها : (قهوة ديانا)، و (قهوةاللوفر)، و (كازينو جليم)، و (كازينو سان ستيفانو) و مقاه أخرى ملحقة بفنادق تطل على البحر بالكرنيش. أما جلسته الأدبية المفضلة فكانت تنعقد في (مقهى بيترو).

* مقهى بيترو:

و مقهى "بيترو" هو مقهى هادىء و جميل، و آرتبط به محفوظ كثيرا، و كان يجلس فيه إلى جانب الكاتب الكبير توفيق الحكيم.. و محفوظ هو مكتشف المقهى ؛ حيث خاطب ذات يوم صديقه الحكيم بقوله : ((قلت له : أنا شفت مقهى هادئا و معزولا، تستطيع أن تخلو فيه إلى نفسك أنت و أصحابك، و المقهى قريب، منذ ذلك الحين بدأ جلوسنا بمقهى بيترو، أنا الذي اكتشفت بيترو، و بعد أن قامت الثورة ظهر الباشوات في المقهى و شفتهم في حالة الخوف الشديد التي كانوا عليها، من الذكريات الطريفة أن أحدهم كان في حالة، فيه شخص دمه خفيف كان يتكلم عن فيلم بينما الباشا سارح بنظره في البحر، قال هذا الشخص : " داحتى من رأي سعادة الباشا.." الكلام عن الفيلم. لكن

الباشا فزع فجأة و صاح : " أنا ماليش رأي و لا بتكلم في السياسة" قال له : دا احنا بنتكلم في الفيلم.

الباشا قال له : أنا عارف موضوعه إيه.. أنا ماليش دعوة...)) (115)

- محفـــــوظ.. و مقاهي الأسكندرية :

و الأديب محمد سلماوي أمتعنا كثيرا في حواراته مع الكاتب العالمي الأستاذ نجيب محفوظ.. و قد سأله ذات يوم عن (قهاوي الأسكندرية).

- يقول سلماوي :

((سألت الأستاذ نجيب محفوظ : لقد كنت من رواد قهاوي الأسكندرية أيضا فهل عرفت فيها التنوع نفسه الذي عرفته في القاهرة ما بين القهوة البلدي و قهاوي وسط البلد الأنيقة و القهاوي الأدبية؟

فقال : لا.. القهاوي بالنسبة لي في الأسكندرية كانت قهاوي تصييف فكنت أرتادها لمقابلة الأصدقاء، و لقد جلست كثيرا مع مجموعة توفيق الحكيم بكازينو بترو و كانت تلك هي القهوة الأدبية الوحيدة التي أرتادها في الأسكندرية، أما جلستي المعتادة فكانت بكازينو سان استفانو و كازينو جليم من قبله.

و أذكر أن منطقة السلسلة كانت كلها قهاوي تمتد بطول الكورنيش و كانت على البحر مباشرة، و كل منها مشهورة بالشيشة

115- انظر (نجيب محفوظ.. يتذكر) ص 92.

الخاصة التي كانت تقدمها. و قد كانت للشيشة في الأسكندرية ميزة خاصة لأن رطوبة الجو كانت تجعل الدخان رطبا دائما بينما في القاهرة كان النادل يأخذها بين الحين و الحين ليبللها و يعيدها ثانية حتى لا تحمى.

و لقد كنت أجلس أيضا على قهوة ((ديانا)) و ((قهوة اللوفر)) التي كان قد اشتراها المرحوم عبد الحميد الوكيل بعد الثورة، و لقد ذهبت إليها حنينا إلى الوفد لأنها كان يرتادها الوفديون القدامى من معارف عبد الحميد (بك) و كنت أشعر براحة كبيرة حين كنت أراهم. و لقد اشتهرت قهوة اللوفر بأنها كانت تقدم أفضل قهوة بالاسكندرية، أما الطعام فقد أحضر عبد الحميد (بك) الطباخ الخاص به من أيام العز و جعله يعمل بالقهوة فكان يقدم الوجبات الفاخرة التي لم يكن لها مثيل إلا في بيوت الذوات.

و أذكر أنني كنت أذهب مع صديقي المرحوم عمر طوسون و صديقي عصام الانا أطال الله في عمره، و كنا نرى الوزراء القدامى، و كنا نجلس بالقهوة حتى الساعة العاشرة مساء لنتفرج كل يوم على سيارة النحاس(باشا) التي كانت تمر على الكورنيش وهو جالس في مؤخرتها ليشم الهواء فلم يكن يستطيع الخروج من بيته أثناء النهار، و كانت السيارة تسير به حتى الميناء الشرقي ثم تعود به ثانية.

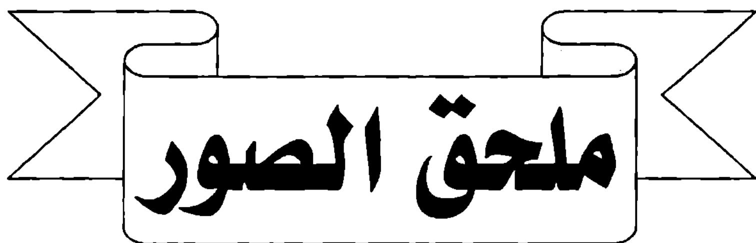
و ذات مرة كنت جالسا وحدي في القهوة و يدي على خدي، فتعرف عليّ عبد الحميد (بك) و كنت في ذلك الوقت أكتب في

"الأهرام" و أنتمي إلى جيل الثورة فجاء و قال لي : طيب و أنت حاطط أيدك على خدك ليه؟ فقلت له في عقل بالي: ما أنا منكم و أنتم لا تعلمون !)) (116)

*　　　*　　　*

فهذه هي رحلة نجيب محفوظ مع (المقاهي) .. و عبر الماضي و الحاضر، و مع ما رصدته نصوصه الروائية من وعي بالهوية في حركة الزمن، و وفقا للمنظور السردي الذي يتعاطف مع الحلم و سلم الإرتقاء بالذات إلى الأرقى من أجل تحقيق إرادة الحياة، و فتح النوافذ المغلقة .

116- انظر (مقاهي الأدباء في الوطن العربي) : رشيد الذوادي ط القاهرة 1999 ص 203 و ما بعدها.


ملحق الصور



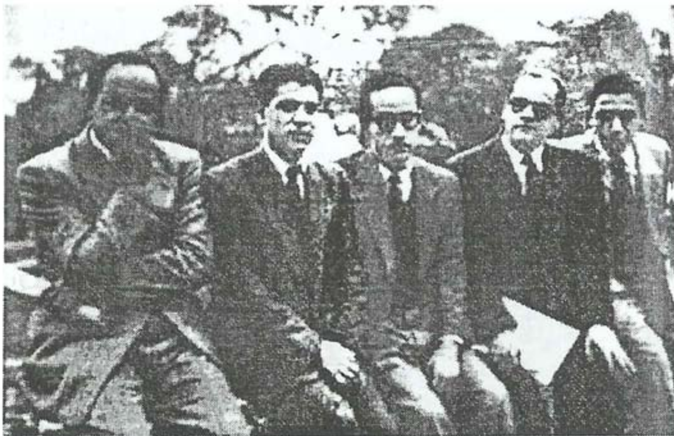




كانت الطرابيش تعلو رؤوسنا ، بالامر ، ايام ثانوي . وكان ممن لبس الطربوش يعتبر « قليل قيمة » .. حتى ان مدرسي اللغات الاجانب في مدرسة فؤاد الاول كانوا يلبسون الطربوش . الشخص في الصورة مع صديقي المرحوم

في القناطر الخيرية .. والتاريخ يرجع الى اواخر العشرينات . يظهر في الصورة معي المهندس ابراهيم فهمي دعبس ، والمرحوم احمد نويرة وكان من اعز اصدقائي ، والزميل القديم حسن المهيلمي وهو تاجر ، وسعيد الالفي وقد انقطعت عني اخباره منذ البكالوريا .. اما الطول من في الصورة فقد نسيته تماماً .. لا اعرف من هو . والبعد جفا كما يقولون !





في جزيرة الشاي بحديقة الحيوانات .. محمد عفيفي واديبان عرالبان احدهما شاكر خصباك .. والثاني نسيته .. ثم انا ..



السحار ونعيم وتيمور الشب ، صدقاء آخرون في ندوة الاوبرا التي ظلت حتى طلب مني ادارة الامن العام ان نحصل على ترخيص بالاجتماع في كازينو اوبرا صباح كل جمعة .. وانفضت الندوة أنصارا للسلام وبعيدا عن « البوتيكة » !! ..

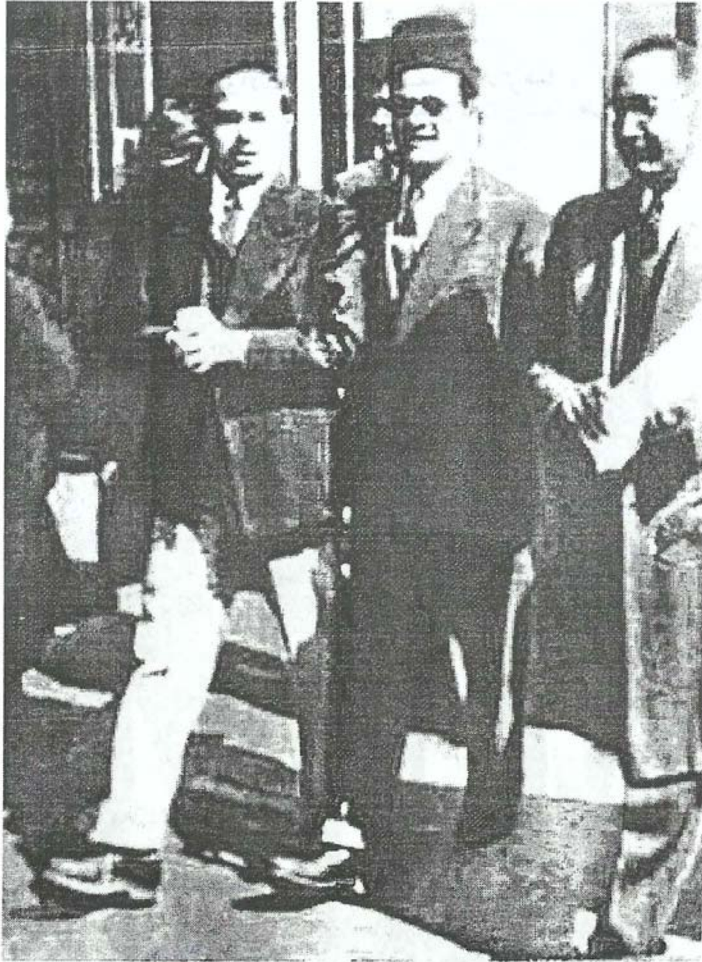


فى الجامعه .. واذكر من رفاق الصورة الدكتور على احمد عيسى بجامعة ليبيا الان ، واديب مصرى وهو الان ناظر او مفتش بوزارة التربية ، والزميل رياض منقريوس الذى كان – وياللعجب – يجيد ترتيل القرآن بصوت شجى رخيم . كان مغرما بتقليد الشيخ على محمود ، والشيخ ندا ..



في الإسكندرية .. والاثنان رفيقا صيف لا أذكرهما . انظر
كيف لبست المايوه .. كنت قد أجرته وكان واسعا علي !





السحار بأناقة الشباب، وعبدالمنعم الخضري وكان موظفاً في الرأي العام ومترجماً قديراً، وأنا .. طلب الانتهاء من ندوة الأوبرا. استمرت الندوة عشرين سنة كاملة، كنا نقابل خلالها كل يوم جمعة .. ثم انتهت نهاية غريبة!



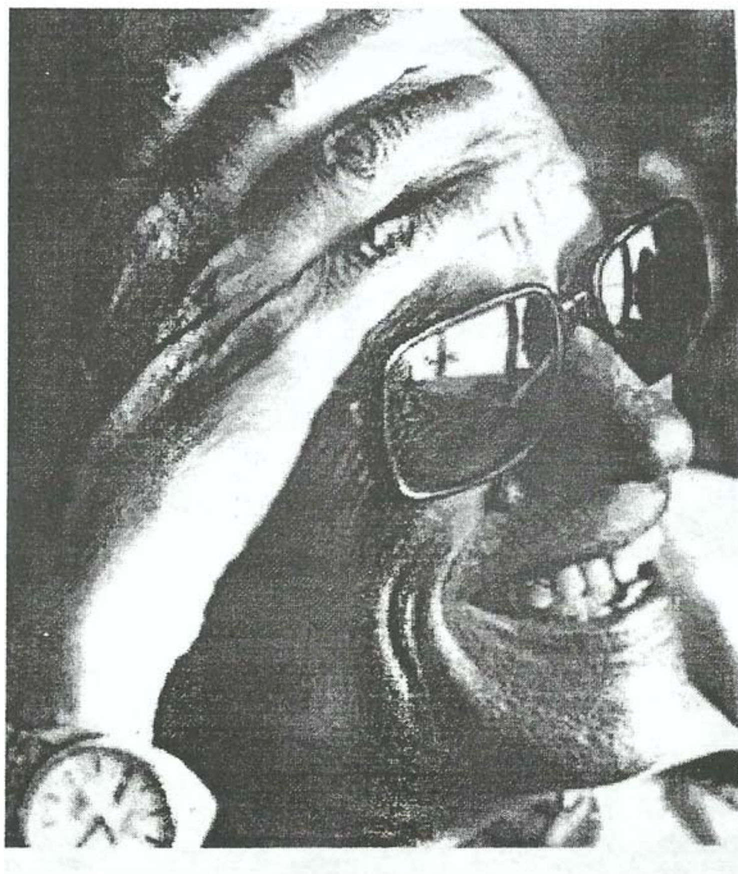
صورة عمرها اربع سنوات
مع ابنتى .. كنت وقتها
اعطيهما - مضطرا -
القليل القليل من وقتى !

في القناطر الخيرية .. والتاريخ يرجع الى اواخر العشرينات . يظهر في الصورة معي المهندس ابراهيم فهمي دعبس ، والمرحوم احمد نويرة وكان من اعز اصدقائي ، والزميل القديم حسن الهيلمي وهو تاجر ، وسعيد الالفي وقد انقطعت عني اخباره منذ البكالوريا .. اما الطول من في الصورة فقد نسيته تماما .. لا اعرف من هو . والبعد جفا كما يقولون !



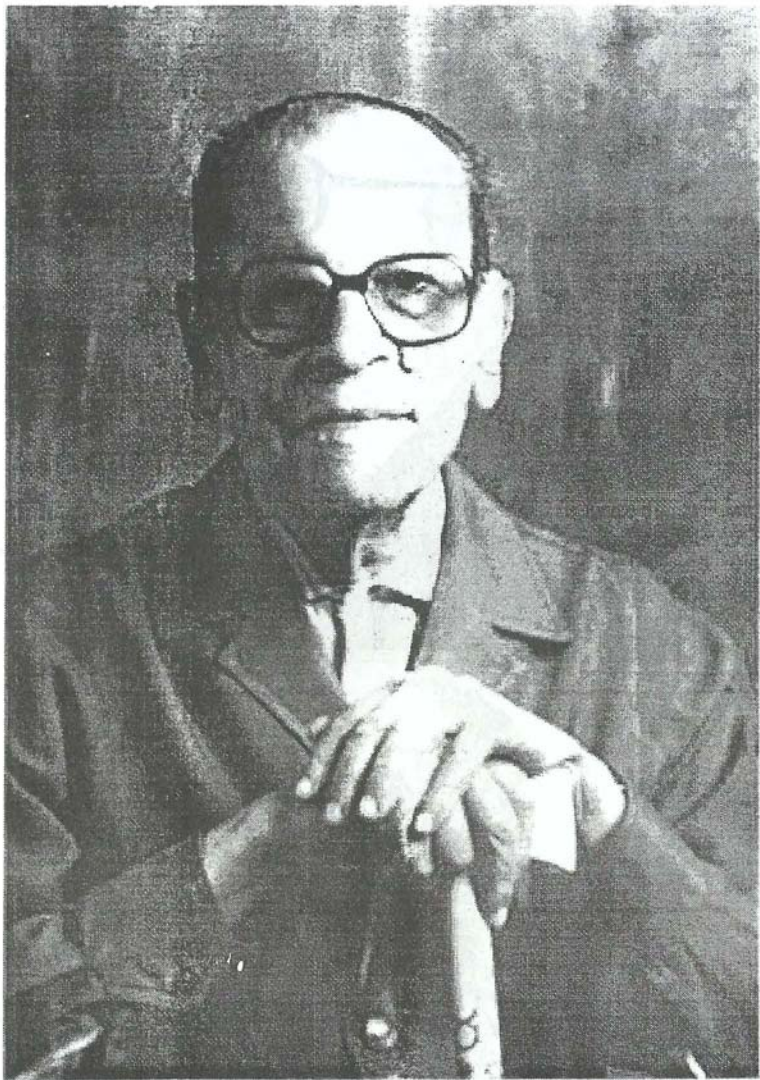


كانت القناطر هي منتزهنا ومرتعنا .. وأي كان يمكن للأليمنا ان تسمح لنا بالذهاب لو لم تكن القناطر ! .. الذي يلبس القبعة هو المرحوم فؤاد نويرة وكان دكتورا في الاجتماع ، وهو شقيق ثان للفنان عبد الحليم نويرة و « للمرحوم احمد نويرة » .. وعبد الحي الالفي وكيل الوزارة بديوان المحاسبة .. وحسن الهيلمي التاجر الان






نجيب محفوظ
EGYPT
مصر

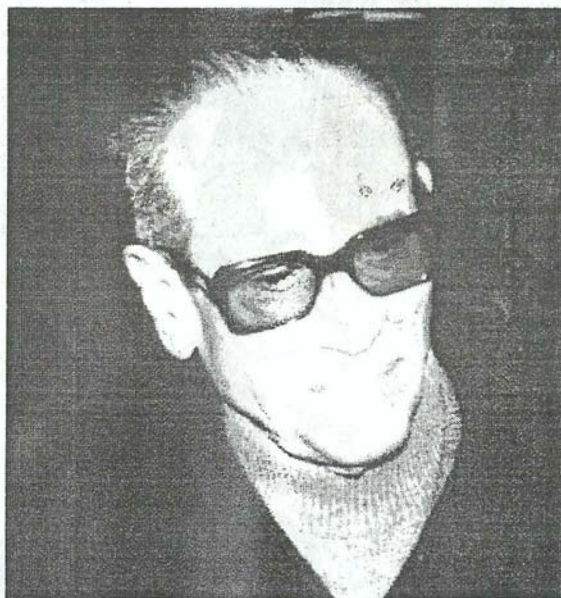



















SHAM
EL

















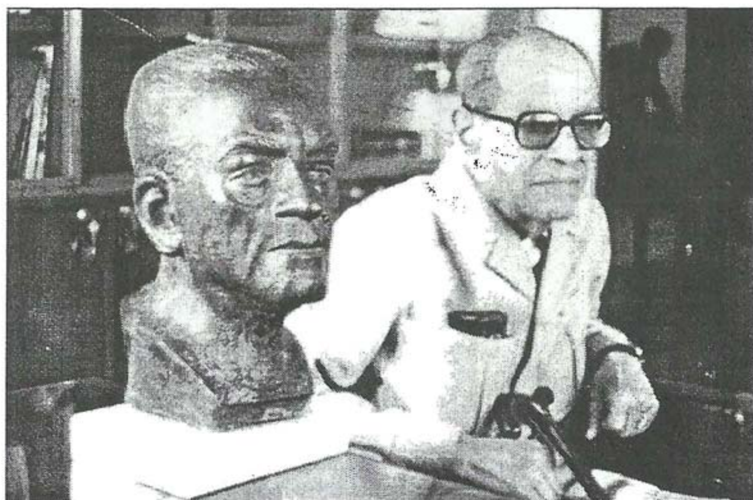






















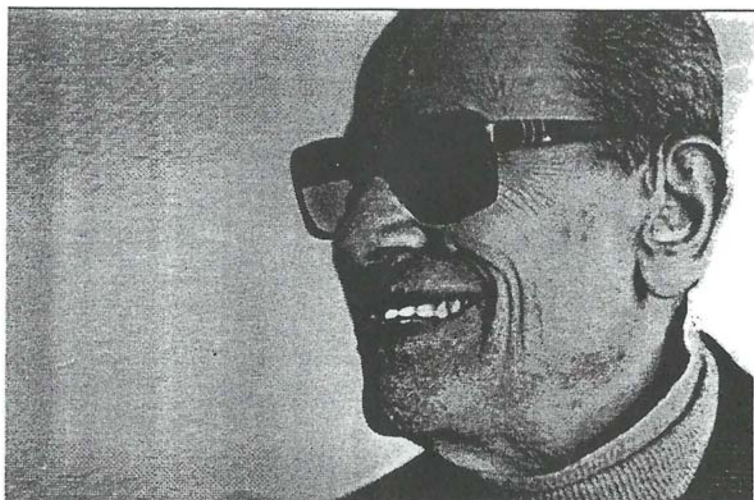














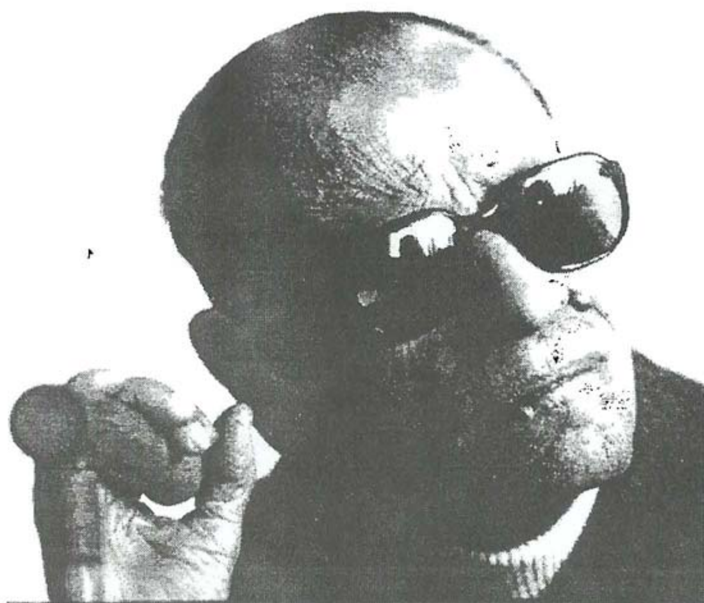


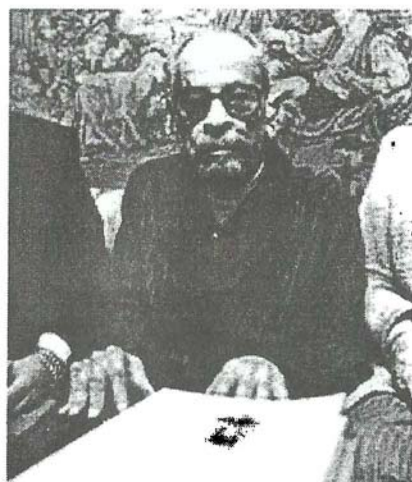


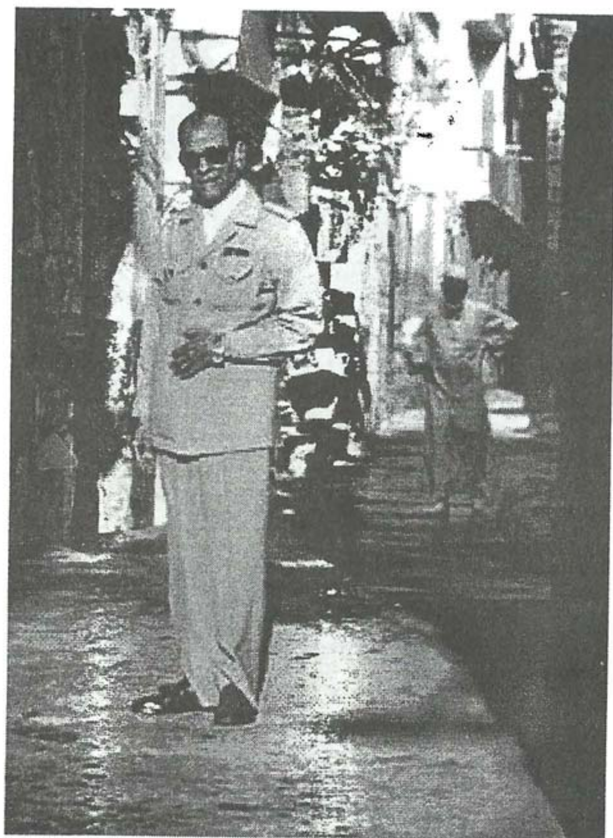




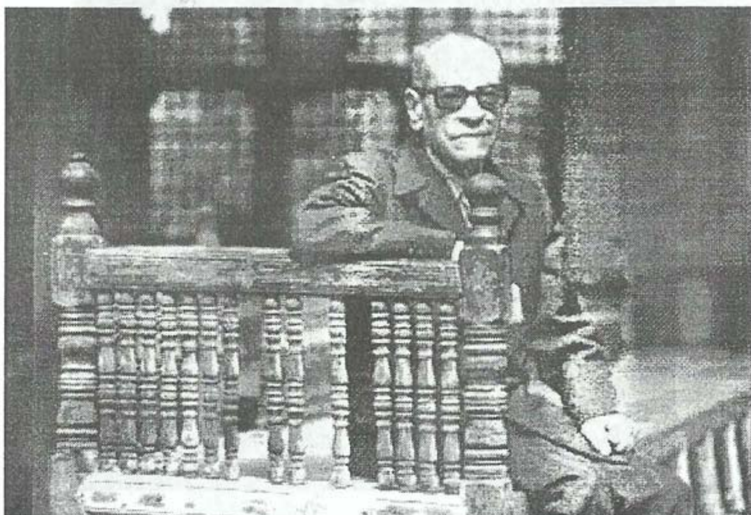


























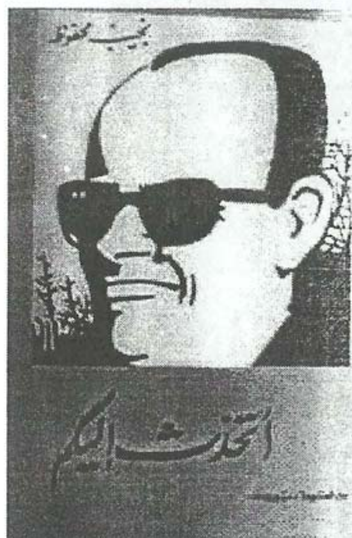











نجيب محفوظ
أتحدث إليكم

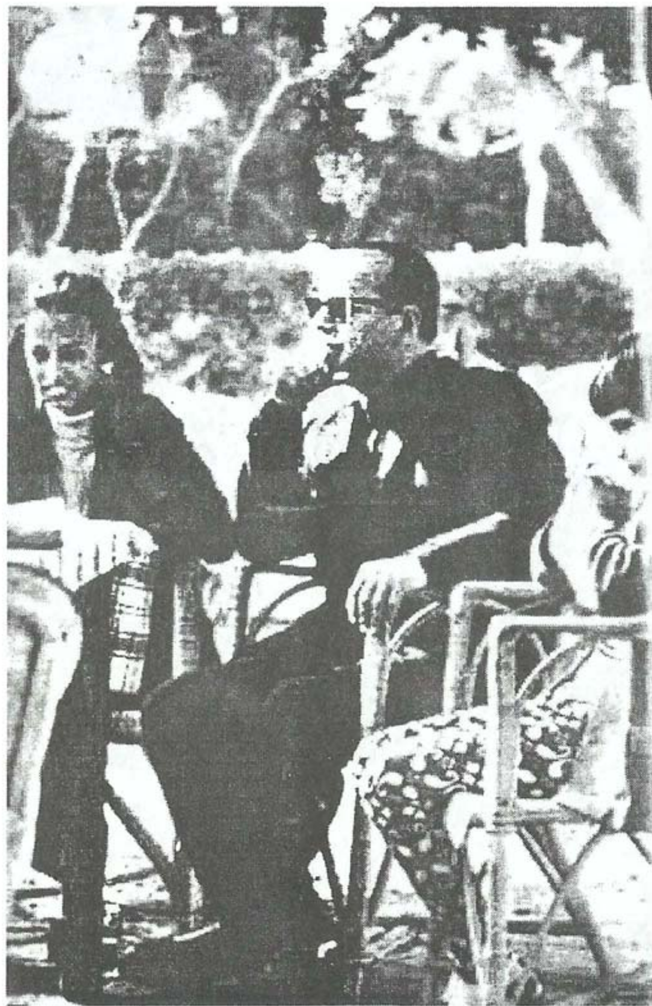


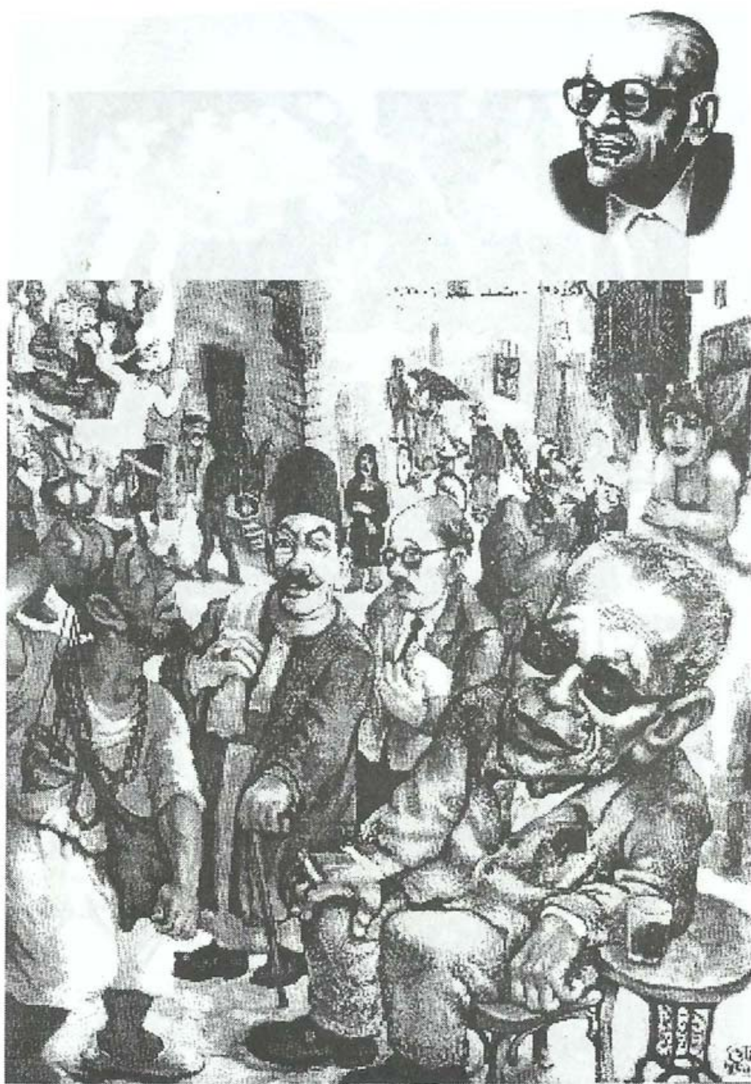






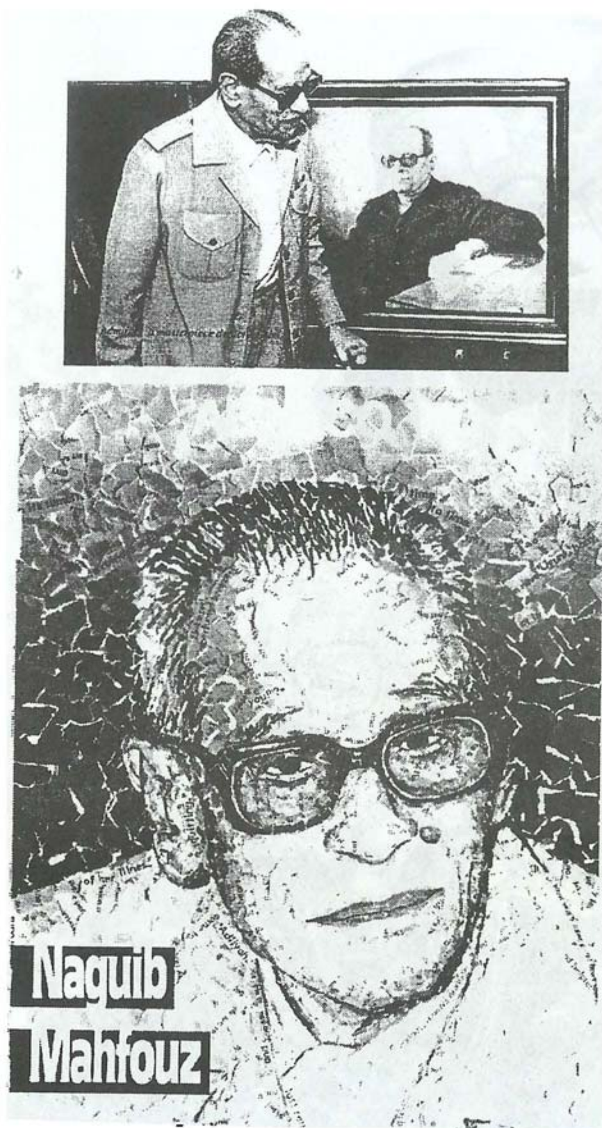




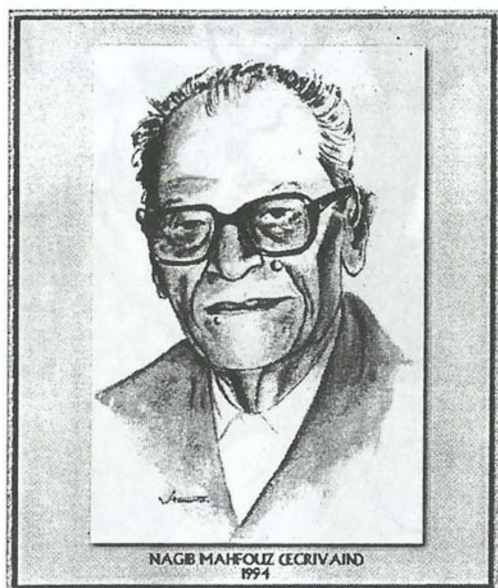







Naguib
Mahfouz



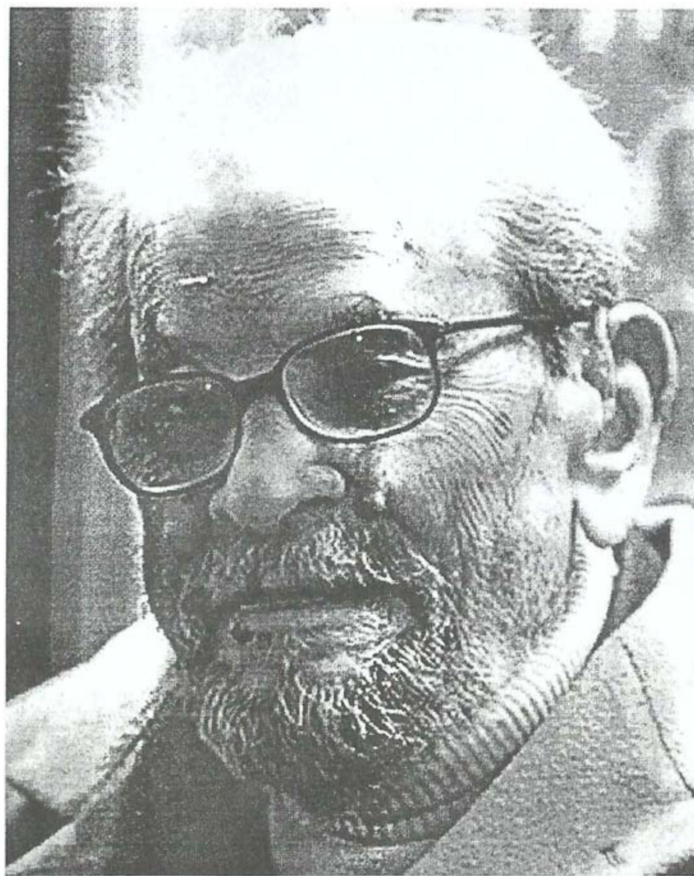

NAGIB MAHFOUZ (ECRIVAIN)
1994


















عبقرية نجيب

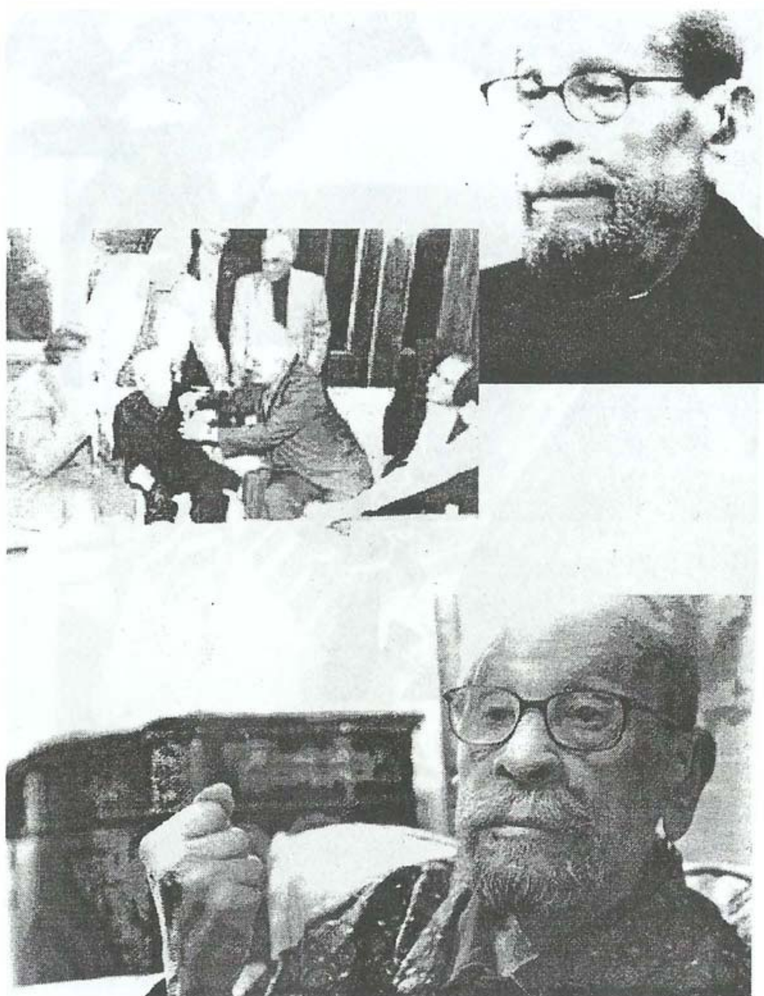












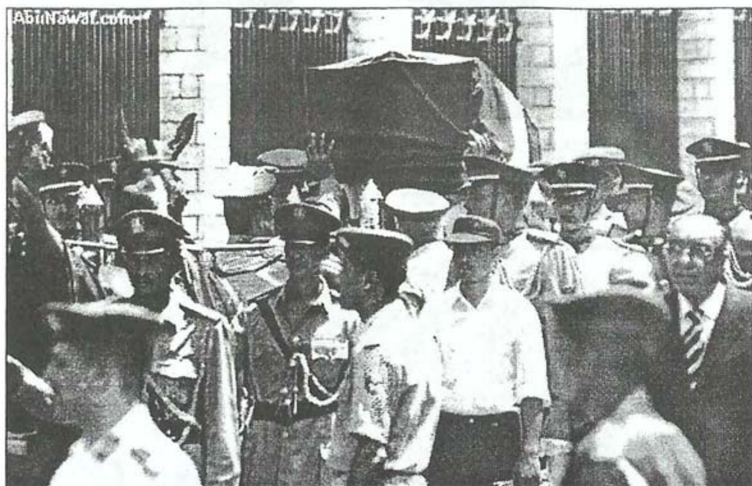



محمد سلماوى
المحطة الأخيرة





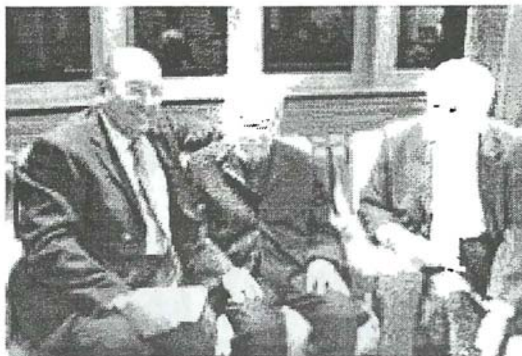










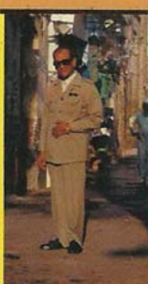






المحتويات





قارئ هذا الكتاب ؛ يجد نفسه مع وحي القلم وخطوطه المضيئة، وفي رحلة ممتعة بين القاهرة والأسكندرية، وفي صحبة أديب عالمي كبير عاش في أسئلة الأيام، وطاف في الحارات الشعبية وأحبها، وآستمد منها شخصياته الروائية، وتأكد لديه أن الزمن يمثل الحقيقة الأزلية الوحيدة التي تتحكم في كل الجزئيات حوله.

وقارئ هذا الكتاب يعيش في ذاكرة جيل هام « بالمقاهى » كأماكن مفتوحة للحوار والنقاش، ويرافق كاتبا أصيلا بدأ رحلته مع القضية والقلم ؛ وهو الكاتب القدير الأستاذ نجيب محفوظ؛ الذي فتح أعيننا عن الواقع الاجتماعي الجديد، ومثل الوجه المشرق لدينا وحسم قضية الإنتماء.

وهذا الكتاب ينقلك عبر « مقاهى محفوظ » في الأعوام الماضية بحرارتها وأسئلتها، ويرصد الواقع والخبرة، وحراك المجتمع المصرى في أيام زمان ..

الناشـــر

مكتبة مدبولى
MADBOULY BOOKSHOP
٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة - ت : ٢٥٧٥٦٤٢١
6 Talat Harb SQ. Tel.: 25756421
www.madboulybooks.com - info@madboulybooks.com